الفصل السادس

الثقافة والمقاومة

- من ثقافة السلطة إلى سلطة الثقافة.
- ثقافة المقاومة.
- مصر تتحدث عن نفسها.
- الثقافة السياسية للخارجية المصرية.

من ثقافة السلطة
إلى سلطة الثقافة

أولا: ثقافة السلطة.

١- موضوع "المثقف والسلطة" موضوع شائع. تم التطرق إليه فى عدة رسائل جامعية ومؤلفات علمية ومقالات اجتهادية. وعقدت له عدة مؤتمرات وندوات عربية ودولية. وشاعت فيه الأحكام النمطية. ومن الصعب التطرق إليه من جديد دون تكرار ما هو معروف من أنماط العلاقات بين المثقف والسلطة. ومع ذلك إنه لشرف للمثقفين أن يذكروا أنفسهم برسالتهم، وأن يوقظوا ضمائرهم لأهم الأخطار التى يتعرضون لها فى حياتهم ألا وهو إغراء السلطة ومجاورة السلطان. وكما حرم البعض نقد حتى بغلة السلطان كفر أبو موسى المردار شيخ المعتزلة كل من جالس السلطان.

ولا تبرز هذه القضية إلا فى المجتمعات النامية والتى تحتاج أنظمتها السياسية إلى نوع من الشرعية عن طريق التبرير الأيديولوجى لها نظراً لأن الشرعية الدستورية تنقصها إثر انقلاب عسكرى أو نظام ملكى أو حكم تسلطى يعتمد على الطبقة أو نظام قبلى عشائرى، طالما أن السلطة السياسية غير مستمدة من الشعب

(*) ندوة النقد الحضارى فى الفكر العربى المعاصر، أسئلة الحاضر وتحديات المستقبل، جامعة عبد المالك السعدى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، نادى الكتاب، تطوان ٢٧-٣٠ أبريل ٢٠٠١.
وندوة إشكالية السلطة فى الفكر العربى الإسلامى ، جمعية الثقافة العربية فى بريطانيا ، لندن ٢٨-٢٩ يوليو ٢٠٠١.

عن طريق الانتخاب الحر المباشر دون تزييف أو تلاعب بنتائج الانتخابات ودون قهر أو تخويف للمرشحين من أجل ضمان نتيجة شبه إجماعية على الرئيس الأوحد والمرشح الواحد مدى الحياة أو على نواب الحزب الحاكم الذى يجرى الانتخابات وهو فى السلطة وفى كنف الدولة التى بيدها أجهزة الإعلام والأمن.

هنا تنشأ الحاجة إلى ثقافة السلطة من أجل إقناع الناس بشرعيتها واختياراتها السياسية. وهى ثقافة تابعة للسلطة. تدور فى فلكها حتى ولو غيرت السلطة اختياراتها من النقيض إلى النقيض، من مقاومة العدو إلى الصلح معه، من الحرب إلى السلام، من مناهضة الاستعمار إلى التحالف معه، ومن الاشتراكية كحل حتمى إلى الرأسمالية كضرورة اقتصادية، ومن القومية العربية إلى القطرية. وغالباً ما يتم ذلك بنفس الرجال. فالمثقف مهمته التبرير وليس التفكير، الدفاع وليس التحليل، المهنة وليس الرسالة، الوظيفة وليس القضية.

ولا يختلف فى ذلك المثقف العلمانى عن رجل الدين. الأول يبرر اعتماداً على النظريات السياسية المدنية، والثانى يبرر اعتماداً على الموروث الدينى القديم. لذلك تحالف رجال السياسة ورجال الدين عبر العصور، وتفاوتت السلطتان السياسية والدينية على حكم الشعوب. وكان أحد أسباب التحرر الفصل بين السلطتين، بين الكنيسة والدولة، فى بدايات العصور الحديثة فى الغرب.

ويمكن معرفة ذلك اعتماداً على التجارب الحية الفردية والاجتماعية، "اعرف نفسك بنفسك" كما قال سقراط، و"فى داخلك أيها الإنسان تكمن الحقيقة" كما قال أوغسطين وكما يستشهد بها هوسرل فى التأمل الخامس فى "تأملات ديكارتية"[1]. وهو اختيار القرآن الكريم ﴿وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾، ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾. فالاعتماد على رؤية ما يحدث فى العالم الخارجى وفى النفس هو الاستبطان الذى يتحول فيه الخارج إلى الداخل، والمكان إلى زمان، والواقع

(١) E.Husseral: Méditations Chartesiennes; Trad. E. Levinas, Vrin, Pari, 1935, P. 134.

إلى ماهية[1].

٢- والمثقف فى علاقته بالسلطة على ثلاثة أنواع. الأول الموظف الأيديولوجى التابع للسلطة والمبرر لقراراتها أياً كانت. يستعمل علمه وثقافته وأسلوبه وقدراته فى تزيين قرارات السلطة بطرق جدلية، الدفاع عن القرار والهجوم على الخصوم كما يفعل رجل الدين فى الدفاع عن العقيدة والهجوم على خصومها. وقد يستعمل طرقاً سوفسطائية، قلب الحق باطلاً والباطل حقاً مادام الهدف هو إقناع الناس، والتسليم بما يقول، والخضوع للسلطان. الحقيقة هو مدى إقناع الناس بها كما هو الحال فى الإعلام حتى ولو لم يقتنع بها المبرر نفسه. فالوجود يقوم على العدم يثبته الإيهام والكذب والإقناع بالباطل والنفاق والازدواجية كما حلل سارتر فى "الوجود والعدم" وكما حلل هيدجر ظاهرة "الرغى" فى "الوجود والزمان"[2].

والثانى الشهيد، المناهض للسلطة، المعارض لقراراتها، الناقد لسياستها، الرافض لاختياراتها بالقول وبالفعل. ويتم ذلك من خلال القنوات الشرعية وصحف المعارضة والجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية والاتحادات الطلابية والنقابات العمالية والمهنية كالمحامين والصحفيين والأطباء والمهندسين ونوادى أعضاء هيئة التدريس بالجامعات. وهى محدودة الأثر ليس لها وسائل الاتصال الجماهيرية العامة. وهى مهددة دائماً بالحصار والحل والمنع. صحف المعارضة تطبع فى دور الحكومة، قليلة التوزيع، مثقلة بالديون. همها أن تكون المعارضة بديلاً عن السلطة القائمة بنفس الفكر وطرق الممارسة وإن اختلفت فى الظاهر. المعارضة فى الحكم تسلطية أحادية الطرف لا تسمح بالمعارضة كما تفعل السلطة.

وقد يتم ذلك بطرق غير شرعية عن طريق التنظيمات السرية، والنشرات والمطبوعات والكتيبات والمنشورات تحت الأرض، وهو طريق مسدود لأن عيون الدولة فى كل مكان، وأجهزة الأمن لا تخفى عليها خافية. وهى فى الغالب مخترقة أو

---

(١) وهو ما سماه عثمان أمين "الجوانية"، وهوسرل "الوعى الداخلى بالزمان"، وبرجسون "الديمومة".

(٢) J. P. Sartre: L'Etre le Néant, Gallimard, Paris, pp 5-111. M. Heidegger: Sein and Zeit, M. Niemeyer, Tubingen, 1955, pp 167-170.

يتم التعرف عليها إذا ما اعترف أحد أعضائها بسبب أهوال التعذيب. وهى عاجزة عن تغيير نظام الحكم بالقوة إلا إذا تبناها الجيش. والجيش جزء من النظام، لا يتدخل فى السياسة. والهبات الشعبية وقتية، مثل هبات الخبز أو المظاهرات المؤيدة للانتفاضة والمعارضة للعدوان الأمريكى على شعب العراق سرعان ما تعود إلى سابق عهدها من استكانة وركود.

والثالث الجسر بين السلطة والمعارضة فيما عرف أخيراً بنظرية "التجسير" من أجل الإقلال من مضار السلطة والزيادة فى منافع المعارضة، وتقليل الفجوة بين السلطة والمعارضة من أجل استتباب النظام وإطالة أمده. الحوار الوطنى هو الطريق، والتعددية الفكرية والسياسية هى المنطلق. تصبح السلطة أكثر ديموقراطية باستماعها إلى آراء المعارضة. وتصبح المعارضة أكثر اقتراباً من السلطة والتأثير فيها. هو الطريق الثالث بين السلطة التى تقمع المعارضة، والمعارضة التى تريد اقتلاع السلطة.

وإن كان التجسير ممكناً بالفعل، وأقرب إلى الحل العملى لتحقيق السلم الاجتماعى ونزع الفتيل من الصدام بين السلطة والمعارضة الذى قد يصل إلى حد القتال المسلح كما هو الحال فى الجزائر والسودان بشكل علنى جهرى وفى مصر وتونس وليبيا والمغرب والعراق بشكل مكبوت ضمنى. هى طريقة شد الحبل بين السلطة والمعارضة، وجولات الحرب، بلا غالب أو مغلوب كما هو الحال فى اليمن والكويت والأردن. وتظل التجربة اللبنانية فريدة فى نوعها حيث تقوم المعارضة بدولة داخل الدولة، وتمارس سلطة الدول فى الدفاع وتحرير الأرض وتنظيم الخدمات الاجتماعية.

ولا يوجد ضامن لئلا يتحول التجسير بين السلطة والمعارضة إلى نوع من الانتهازية. فالمثقف يستفيد من الفريقين. يستفيد من السلطة المنصب والتأييد والمنبر والإعلام والأمان وبعض هامش الحرية والمناورة وربما بعض الربح من أهل الحظوة. ويستفيد من المعارضة احترامها وتقديرها. فهو لسان حالها والمعبر عن

مطالبها والمطالب بشرعيتها. فهو أشبه بالملونين بين البيض والسود. وهو ليس غريباً على الطبقة المتوسطة، البرجوازية الانتهازية بطبيعة تكوينها وممارساتها[1].

٣- ومهما بلغت خدمة المثقف للسلطة فإن السلطة تضحى به بعد أن تستعمله. فالسلطة لا تعمل إلا بمنطق الاستمرار والبقاء ضد الخصوم. وتعمل على التناقضات بين المثقفين واستعدادهم جميعاً لخدمتها. فإذا كان الخطر من الإسلاميين فإنها تستعمل العلمانيين ضدهم لوصفهم بالعنف والحرفية والتخلف كما حدث فى مصر فى الخمسينات والستينات ثم فى الثمانينات والتسعينات حتى الآن، وكذلك فى تونس وسوريا والعراق وربما المغرب. وإذا كان الخطر من العلمانيين فإنها تستعمل الإسلاميين ضدهم وتصفهم بالمادية والإلحاد والانحلال، ومن لا إيمان له لا أمان له، كما حدث فى مصر فى السبعينات، ومازال فى السودان وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية والتيار المحافظ فى إيران الذى يسيطر على القضاء والثقافة. تضرب السلطة هذا الفريق بذاك الفريق من أجل إضعاف الفريقين المعارضين وتقوية النظام القائم، ويقوى القلب إذا ما ضعف الجناحان. وإذا ما كانت السلطة قوية فإنها تضرب التيارين فى آن واحد لإضعافهما فى البداية كما حدث فى مصر فى الخمسينات بضرب الإخوان فى ١٩٥٤ والشيوعيين فى ١٩٥٨ بعد تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦، والوحدة مع سوريا ١٩٥٨ فى ذروة القومية والنضال ضد الاستعمار والصهيونية.

العلاقة بين المثقف والسلطة هنا تقوم على الكذب والنفاق والمنفعة العاجلة، والشعب هو الضحية. يظن المثقف أنه يستعمل السلطة لصالحه لنشر تياره السياسى بالاستعانة بالدولة خاصة أن الإعلام فى يده ميسر، سواء كان إسلامياً أو ماركسياً. والحقيقة أن الدولة هى التى تستعمله وتستدرجه. تقدم له القليل لتأخذ الكثير. تحسّن صورتها أمام الشعب وفى نفس الوقت تضحى به إذا ما تجاوز الخط

---

(١) انظروا دراستينا: "رسالة الفكر"، "دور المفكر فى البلاد النامية"، قضايا معاصرة فى فكرنا المعاصر، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦ ص ٣-٢٧.

الأحمر، وقام بدوره الخاص لحسابه الخاص. فالعبد لا يصبح سيداً، والخادم لا يصير مخدوماً.

٤- والمثقف السلطوى هو الأيدلوجى بصرف النظر عن اتجاهه، إسلامياً كان أم ماركسياً، وهما الجناحان الرئيسيان للقلب. هو الذى انتسب إلى حركة الإخوان المسلمين أو إلى إحدى الفصائل الشيوعية فى شبابه. وربما يكون القومى خاصة فى الشام والعراق ومصر الذى كان اختيار معظم النظم السياسية فى الخمسينات والستينات، وفى الخليج فى السبعينات والثمانينات وربما حتى الآن عندما أصبحت القومية اختيار العرب بعد حركات التحرر الوطنى وأثناء بناء الدولة الحديثة.

وهو الجامعى، الباحث الأكاديمى الذى توظفه سلطته العلمية ونظرياته السياسية لخدمة النظام. وسرعان ما يترقى فيه إلى اللجنة المركزية للحزب أو الوزارة. ومن أفضل من الأستاذ الجامعى لكى يكون الموظف الأيديولوجى للسلطة بما له من مكانة اجتماعية مرموقة، وحلو الحديث، والمهارة المهنية، وما يفترضه الشعب فيه من أمانة القول وصدق الخطاب.

وهو المهنى المهندس أو الطبيب أو المحامى، رجل الفكر والعمل الذى يضحى بوقته من أجل القضية العامة، والقادر أمام الناس على حل أزماتهم بالعلم والعمل. يبنى السدود، وينشئ المستشفيات العامة، ويدافع عن حقوق الناس. هم أهل الخبرة فى مقابل أهل الثقة. ولما كانت الجماهير تئن من ضنك العيش فإنها تنظر إليهم باعتبارهم مخلصين، وتصدقهم القول. وهو الضابط فى القوات المسلحة بعد أن يحال إلى الاستيداع، ويتفرغ للعمل السياسى. فالثورة من صنع الضباط الأحرار وهم ورثتها، والقادرون وحدهم على تحويل الثورة إلى دولة، يجمعون بين أهل الثقة وأهل الخبرة. يمثلون النظام فى الجيش، والقدرة على الفاعلية. ويعملون فى الحقل المدنى بعد أن كثر كلام السياسيين وقل الفعل، وبما لديهم من ثقة عند الناس خاصة إذا كانوا من أجيال الضباط الأحرار من أهل الثقة وإن لم يكونوا من أهل الخبرة. لذلك تم الحديث فى عهود الثورة العربية منذ الخمسينات خاصة فى

مصر والعراق عن "عسكرة المجتمع" خاصة فى لحظات الأزمات الكبرى الداخلية أو الخارجية.

وهو رجل الدين، فقيه السلطان. وقد كان منذ نشأته الأولى مثقف السلطة منذ إضفاء الشرعية على مغتصب الحكم منذ الأمويين القدماء والأمويين المحدثين ضد ثورات آل البيت والخوارج والمعتزلة وفقهاء الأمة الذين نالهم السجن والتعذيب. فالفقهاء نوعان: الأول لبس الحلة، ونال المشيخة، وتنصب فى دار الإفتاء، وتصدر الإعلام وسار فى موكب الرؤساء[1]. يفتى بالحرب إذا حارب الرئيس ﴿وأعدوا لهم ما استطعم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون بهد عدو الله وعدوكم﴾. ويفتى بالسلم إذا شاء رئيس آخر ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾. يفتى باشتراكية الإسلام إذا اختار الرئيس الاشتراكية "الناس شركاء فى ثلاث: الماء والكلأ والنار". ويفتى بالرأسمالية إذا اختارها رئيس آخر بآيات التجارة وفقه النشاط الاقتصادى الحر وبتشبيه القرآن علاقة الإنسان بالله وبالآخرة على أنها ﴿تجارة لن تبور﴾ مثل ﴿يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾. فقد استعمل القرآن لغة الربح والمكسب والخسارة ﴿وتجارة ترجون كسادها﴾، ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وتحدث عن حرية التعامل التجارى ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾. ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾. وغالباً ما يتم ذلك بنفس الرجال وأصحاب القتيا نظراً لقصر عهود الرؤساء بسبب الاغتيال أو الموت وطول عمر المشايخ لما ينعمون به من رغد العيش وموفور الصحة وراحة البال.

٥- ويسرع المثقف إلى السلطة يحقق فيها ذاته. فلم يكن له دور بارز فى مجتمعه. ولم يكن له مشروعه الفكرى أو العلمى الخاص. لم يكن له أثر على الحياة العامة. كان يقتصر دوره على العلم للعلم، والثقافة للثقافة، والأدب للأدب. ثم وجد فى السلطة حضوراً أكثر، وأثراً أوسع. وتحولاً مصطنعاً من النظر إلى العمل. علمه

---

(١) وقد قال محمد عبده فى هؤلاء:

ولكنه دين أردت صلاحه ∴ أخاف أن تقضى عليه العمائم.

لم يساعده على الرقى الاجتماعى. فهى إذن فرصة العمر لئن يتحول من دائرة الظل إلى دائرة الضوء.

لم تكن ثقافته بطبيعتها سلطة، سلطة المثقف والعالم. كان حامل ثقافة أكثر منه مثقفاً، حامل علم أكثر منه علماً، ناقلاً أكثر منه مبدعاً. وسلطة الثقافة بطبيعتها إبداع فى عملية التغير الاجتماعى، والصلة بين النظر والعمل، سواء كانت ثقافة الحاكم أم ثقافة المحكوم. فلجأ إلى ثقافة السلطة كى يكمل بها نقصه، نقص الممارسة والفاعلية، والخروج من دائرة المجهول إلى دائرة المعلوم. لم يكن ولاؤه للمجتمع أو للتاريخ من أجل التغيير الاجتماعى ونقل مجتمعه من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى. إذ يتحقق هذا الولاء قبل اقترابه من السلطة وبعد خروجه منها. هو الولاء الدائم لحركة التاريخ وليس الولاء الوقتى للسلطة أو للمنفعة الشخصية. فيجد فى الولاء للنظام السياسى القائم بديلاً عن الولاء للمجتمع وللتاريخ. فالعاجل أفضل من الآجل، وعصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة، والحاضر أولى من المستقبل.

لا يعرف أن السلطة الفعلية هى سلطة الثقافة وليس ثقافة السلطة. سلطة العالم وليس عالم السلطة، سلطة الفقيه وليس فقيه السلطة. تنبع سلطة الثقافة من داخلها ولا تأتى من خارجها. هى ما سماه الفلاسفة الفكرة – القوة وليس بالضرورة إرادة القوة المنفصلة عن الفكر وحتى لا تتحول إلى مجرد قوة عضلية[1]. فالوحى ممكن الوقوع كما يقول محمد عبده لأنه يتضمن فى ذاته إمكانية تحققه. وهى سمة المثال عند فشته أيضاً، مثال واقع عن طريق التحرر، تحرر الأنا من سيطرة اللاأنا[2].

ويظل مزدوج الشخصية بين الداخل والخارج، الأنا والآخر، العلم والعمل، الصدق والنفاق، الضمير والتملق، الصدق والكذب، واجهة مع النفس وواجهة مع

---

(١) الفكرة – القوة Idée – Force عند فوييه A.Fouillée، جويو J.M.Guyau.

(٢) محمد عبده: رسالة التوحيد، طبعة المنار (د.ت)، ص١٠٨-١١٨.

الآخر، طرف فى السر وطرف فى العلن فينشأ الخطاب المزدوج، حديث النفس وحديث المجتمع. وسرعان ما يكتشفه الناس أو تلفظه السلطة وتستبدل به غيره أكثر قدرة على الإيهام.

ويكتنف ذلك كله حب الظهور والرغبة فى الوصول، والتحول من عالم ما بين الجدران إلى عالم الاجتماعات وأجهزة الإعلام، من دور العلم إلى دور الصحافة، من الصورة الذهنية إلى الصورة المرئية، ومن قلب النظرة إلى الداخل كنظرية فى الرؤية إلى قلب النظرة إلى الخارج. فلا يرى شيئاً إلا أشباحاً يتحرك وسطها، يخطابها وهو ينكرها. ودائرة الضوء خير وسيلة للحضور من دائرة الظل. يبغى الرقى الفردى وليس التقدم الاجتماعى، الانتقال من منصب أدنى إلى منصب أعلى. ولا يأس من المصاهرة كسبيل للوصول.

ثانيا: سلطة الثقافة.

١- إذا كانت ثقافة السلطة هى ثقافة الحكم فإن سلطة الثقافة هى ثقافة المعارضة، ليست المعارضة السياسية الحزبية بل المعارضة الشعبية. إذا أن المعارضة السياسية الحزبية إنما تمثل أيضاً ثقافة السلطة البديلة بمنطق السلطة القائمة عن طريق مثقفى المعارضة الذين يتحولوا إلى مثقفى السلطة إذا ما وصلوا إلى الحكم. كلاهما مثقفوا السلطة، فى الحكم أو خارج الحكم، فى الحكومة أو فى المعارضة، اعتماداً على مبدأ تداول السلطة. يتغير الحاكم وتبقى ثقافة الحكم.

إنما سلطة الثقافة هى التى توجّه الحكم. هى الثقافة الشعبية التى تتحكم فى سلوك الناس وقيمهم ومعايير سلوكهم بل وتصوراتهم للعالم. وفيها تتفاعل كل عناصر الموروث الثقافى الدينى والشعبى، النصوص الدينية والأمثال العامية والحكم الشعبية ففى المجتمعات التراثية أى النامية، الثقافة مازالت حية، ماضية حاضرة، تؤثر فى سلوك الناس. لم تتم القطعية مع موروثها بعد كما هو الحال فى التجربة الغربية فى مطلع العصور الحديثة. هى أكثر من "ولاية الفقيه" التى تستمد سلطتها

من الشخص الملهم المطاع وليس من الفكر الناقد، من سلطة الإيمان وليس من نقد العقل. ولاية الفقيه سلطة رجل الدين الذى تحول إلى رجل سياسة. سلطة الفقيه الذى أصبح رئيس دولة. سلطة الرأى الذى تحول إلى سلطة المذهب. هى ثقافة غير مشخصة فى مجموعة القيم والعادات والتقاليد والممارسات الشعبية بصرف النظر عن الحاكم. بل إن الحاكم يعرف ذلك. ويستعملها مثقفوا السلطة خاصة رجال الدين من أجل الدعوة إلى طاعة السلطان.

وسلطة الثقافة نوعان. سلطة الحاكم وسلطة المحكوم، سلطة الحكم وسلطة المعارضة. وكلاهما مختلطان فى الثقافة الشعبية. يعتمد الحكم على ثقافة، وتعتمد المعارضة أيضاً على ثقافة السلطان دون ثقافة المعارضة فضعفت وغاب أثرها. وضاع تصديقها، وأصبحت معارضة مستأنسة تمثل المعارضة باسم السلطة وتمثل السلطة باسم المعارضة[1].

٢- وتبدو سلطة الثقافة التى يفرزها الحكم فى التصور الهرمى العالم. شعورياً أو لاشعورياً، موروثاً من الفلاسفة أو من الصوفية أو من التراث المصرى الفرعونى القديم أو من حضارات الشرق القديم. فالعالم يتوزع بين الأدنى والأعلى فى محور رأسى وليس فى محور أفقى، وعلى درجات وليس على درجتين أو درجة واحدة. كلما صعدنا إلى أعلى زادت مراتب الكمال وقلت مراتب النقص، وكلما نزلنا إلى أسفل قلت مراتب الكمال وزادت مراتب النقص. فالعالم موزع بين قطبين أعلى وأدنى، موجب وسالب على التراتب والتواصل، وليس على مستويين لا اتصال بينهما إلا الإنسان من حيث هو نفس أو عقل أو روح يشير إلى أعلى، وبدن أو جسم يشير إلى أسفل.

---

(١) انظر دراساتنا: "التراث والتغير الاجتماعى"، "التراث والعمل السياسى"، "التراث والنهضة الحضارية"، دراسات فلسفية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٦ ص ٥١-١٧٦. وأيضاً دراساتنا العديدة فى الموضوع فى:

Islam in the modern world, vol. I, Religion, Ideology and Development, vol. II, Tradition Revolution and Cultre, Dar Kebaa, Cairo 2000.

هذه التراتبية فى الكون تنعكس على كل شئ وعلى المعارف الإنسانية التى إذا أتت من أعلى مثل النبوة والإلهام والحدس كانت أقرب إلى الصواب، مما لو أتت من أسفل، خاصة من الحواس الخمس الخارجية. وفى الفضائل الخلقية، الفضائل النظرية أعلى من الفضائل العملية، والحكمة أعلاها والعمل اليدوى أدناها. وفى الطبقات الاجتماعية الرئيس أعلاها، كامل الأوصاف، والمرؤوسون أدناها خاصة العمال والفلاحون كما هو الحال فى "المدينة الفاضلة" للفارابى التى مازالت مخزوناً نفسياً عند الناس وبنية ثقافية تقام عليها الدول الحديثة وأحد أسباب تضخم جهاز الدولة والبيروقراطية[1].

ولا يتطلب هذا التصور الهرمى للعالم أى تغيير فهو نظام أبدى ثابت. يكفى أن يعيه الإنسان، أن يصعد بعقله، ويسمو بروحه حتى ينال الكمال، ودون حاجة إلى أعمال الجوارح كما تقترحها الشريعة. شريعة القلب أعمق وأسرع من شريعة البدن. لا يحتاج الإنسان إلا أن يعود إلى الوراء بذهنه متراجعاً. إذا كان صدره ووجهه إلى الأمام فإنه يعود القهقرى إلى منشئه الأول وظهره إلى الخلف راجعاً إلى الوراء وليس "خلفاً در" وتغيير الاتجاه بالفعل والسير إلى الأمام عوداً إلى المصدر الأول واجتهاداً بالفعل عن طريق العمل الصالح والسيطرة على الانفعالات ومواجهة النفس والحرص على صفاء السريرة ونقاء الضمير.

فإذا كانت المراتب على درجتين فقط ينشأ التصور الثنائى للعالم كما هو الحال فى نظرية الخلق وقسمة للعالم إلى خالق ومخلوق، علة ومعلول، محرك ومتحرك، صورة ومادة، فعل وانفعال، جوهر وعرض، كيف وكم، تخلخل وتكاثف، خلاء وملاء. وتنعكس هذه الثنائية فى الإنسان، نفس وبدن، عقل وحس. وفى المعرفة، حق وباطل، صدق وكذب، صواب وخطأ، يقين وشك. وفى الأخلاق، فضيلة ورذيلة، حسن وقبيح، حلال وحرام. وفى العلاقات الاجتماعية ذكر وأنثى، رئيس ومرؤوس، ملك ورعية، حاكم ومحكوم، قوى وضعيف، إمام ومأموم.

---

(١) انظر دراستنا: الدين والرأسمالية، حوار مع ماكس فيبر. قضايا معاصرة جـ٢ فى الفكر الغربى المعاصر. دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٧٣-٢٩٤.

وهو مازال التصور الشعبى السائد وأحد أسباب تحول العلاقات بين الذوات إلى علاقة السيد بالعبد[1].

٣- وفى المعرفة، تهبط الحقائق وحياً أو إلهاماً، كالمعرفة الربانية، والعلم اللدنى، معرفة مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ثابتة لا تتغير لا تأويل فيها، تُفهم حرفياً، فالنقل أساس العقل. النقل يقين والعقل هوى وظن وشك. وتقبل توجهاتها لا اعتراض عليها. بها مصلحة البشر. ومن عصى يكون له أشد العذاب ومن أطاع يكون له حسن الثواب.

وتحتوى هذه المعارف على حقائق قائمة بذاتها. مقياس صدقها فى مصدرها وفى الإيمان بها والإخلاص لها. هى غاية فى ذاتها وليست بالضرورة وسيلة لغاية أخرى. الوحى والنبوة حقائق فى ذاتها من الحقيقة الأولى. والعقيدة حق ويقين وليست مجرد بواعث على العمل الصالح. والشريعة، عبادات ومعاملات، تطبيق للأوامر الإلهية وليست بالضرورة تحقيقاً للمصالح العامة. والدين حقيقة فى ذاته وليس وسيلة لإسعاد البشر.

وفى العصور المتأخرة تداخلت مع الخرافة والسحر والطلسمات فى الثقافة الشعبية. فلم يعد هناك فرق بين الصوفى والمشعوذ، بين الربانى والدجال، بين العالم والجاهل. مما دفع البعض إلى إنكارها والدعوة إلى العقل الخالص، والقول البرهانى. فالحكمة كما يقول ابن رشد هى "النظر فى طبيعة الموجودات كما تقتضى به طبيعة البرهان".

فإذا ما تكلست هذه الحقيقة فى التاريخ وتحجرت أصبحت من المقدسات بل ومن المحرمات، لا يمكن تناولها بالنقد والتحليل مع أنها من صنع التاريخ. صاغها رجال ونحن رجال. نعلمهم ولا نقلدهم. فالأشعرية هى الحق فى العقيدة. والشافعية هى الحق فى الشريعة. والفرقة الناجية فى الجنة، وهى فرقة السلطان، والفرق الهالكة

---

(١) وهو ما سماه هشام شرابى "المجتمع البطريركى"، ووصفه نجيب محفوظ فى "الثلاثية" وترمز إليه علاقة سى السيد بأمينة.

فى النار وهى فرق المعارضة. فينشأ التكفير ويغيب الحوار. ويسود منطق الاستبعاد والإقصاء. والماضى خير من الحاضر، والسلف أفضل من الخلف. ﴿وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾، "خير القرون قرنى والذى يلونه".

٤- التحول إذن من ثقافة السلطة عند المثقف السلطوى إلى سلطة الثقافة عند المثقف المعارض لا يفيد كثيراً لأن سلطة الثقافة أيضاً ثقافة سلطوية عن طريق التاريخ، فى المخزون الثقافى لا تختلف كثيراً عن ثقافة السلطة، ثقافة الفرقة الناجية. السلطة والمعارضة تقومان على نفس المنطق، منطق السلطة، فى الحكم القائم أو فى المعارضة القادمة.

كيف يمكن التحول إذن من ثقافة السلطة وسلطة الثقافة معاً حتى يمكن أن يتحرر الناس من ثقافة السلطة وسلطة الثقافة فى آن واحد؟ كيف يمكن إعادة بناء الثقافة الوطنية التى تصب فيها ثقافة السلطة من خلال أجهزة الإعلام أى من السلطة السياسية وسلطة الثقافة من خلال رجال الدين أى السلطة الدينية؟

كيف يتم التحول من سلطة ثقافة الفرقة الناجية الأشعرية فى العقائد، والشافعية فى الفقه، والتصوف كعلم لبواطن القلوب، والظاهرية فى الأصول؟ كيف يمكن التحول من ثقافة الحاكم فى السلطة أو فى المعارضة إلى ثقافة المحكوم التى انزوت فى التاريخ وأصبحت على هامش الوعى التاريخى "تزعم" و"تدعى" فى حين أن الفرقة الناجية "تقول" و"تقرر"؟

إنما يتم ذلك عن طريق إعادة بناء الموروث الثقافى حتى يتحول من سلطة الثقافة إلى تحرر الثقافة بحيث ترتكز الثقافة ليس على القمة بل على القاعدة، وليس على النص بل على الواقع، وليس على النقل بل على العقل. وهذه البدائل موجودة أيضاً فى التراث القديم ولم تعش فى المخزون النفسى إلا عند القلة التى يسهل حصارها واستبعادها واتهامها بالكفر والخروج والمروق والزندقة والإلحاد وشق عصى الطاعة على الحاكم والأمير، يستحق القتل أكثر من مرة، كفراً فى الدين، وخيانة فى السياسة. فإن لم تكف هذه البدائل يمكن إبداع بدائل جديدة. فالزمن يتغير والعصور تتوالى، والاجتهاد لا يتوقف.

٥- ولما كانت العلوم الإسلامية القديمة هو المصدر الذى أفرز الثقافة الموروثة من خلال التعليم فإنه يمكن إعادة بناء هذه العلوم القديمة سواء العقلية أو النقلية أو النقلية الخالصة أو العقلية الخالصة أو العقلية الخالصة بناء على تحديات العصر. فمن العلوم العقلية النقلية الأربعة علم الكلام. وقد أفرز نسقين، الأشعرى كثقافة السلطة، والمعتزلة كسلطة الثقافة. الأول نظرية الذات والصفات والأفعال التى جسدت الوعى وصفاته خارجاً عنه وحنطته وتعبدته مما يتطلب استرداده داخل الوعى الفردى والجماعى من جديد فيصبح موجوداً قديماً باقياً، قائماً بالنفس منزهاً وواحداً، عالماً قادراً حياً سمعياً بصيراً متكلما مريداً حتى يتحول الفرد وتتحول الأمة من جهل إلى علم، ومن عجز إلى قدرة، ومن موت إلى حياة.

ويرد الاعتبار للمعتزلة، المعارضة العلنية بالفكر (المعتزلة)، والمعارضة العلنية بالسلاح (الخوارج)، والمعارضة السرية بالانتظار (الشيعة)، وإحياء التعددية الفكرية ضد حديث الفرقة الناجية، فلا تجتمع الأمة على ضلال، والكل راد والكل مردود عليه. وفى علوم الحكمة يُعاد الاختيار بين البديلين، الإشراقى (ابن سينا) وهو ثقافة السلطة إلى العقلى وهو سلطة الثقافة (ابن رشد). وفى أصول الفقه يُعاد الاختيار بين الشافعية وهى ثقافة السلطة إلى المالكية وهى سلطة الثقافة إثباتاً للمصالح. فما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن، والمصلحة أساس التشريع كما قال الطوفى. وفى التصوف يتم الاختيار بين تصوف الصبر والخوف والخشية والرضا والتوكل إلى تصور أكثر فاعلية يقوم على مقامات الجهاد والاعتراض ومواجهة الحاكم الظالم، والغضب لحق الله[1].

ويمكن إعادة بناء العلوم النقلية وهى أكثر العلوم أثراً فى المساجد والزوايا والمعاهد الدينية وفى الثقافة الشعبية للناس، علوم القرآن وبيان أهمية أسباب النزول

---

(١) وقد تم بناء علم الكلام من قبل "من العقيدة إلى الثورة" (خمسة أجزاء)، مدبولى، القاهرة، ١٩٧٨، وعلوم الحكمة فى "من النقل إلى الإبداع" (تسعة أجزاء)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠١. ومازال تحت الإعداد "من النص إلى الواقع" (علم أصول الفقه) و"من الفناء إلى البقاء" (علوم التصوف) و"من النقل إلى العقل" (العلوم النقلية).

والناسخ والمنسوخ أى حوامل المكان والزمان، الواقع والتطور للوحى، وعلوم الحديث والتحول من نقد السند إلى نقد المتن، من النقد الخارجى إلى النقد الداخلى، وعلوم التفسير، والانتقال من التفسير الطولى، سورة سورة وآية آية إلى التفسير العرضى أى التفسير الموضوعى، تجميع الآيات كلها حول الموضوعات طبقاً لوضع الإنسان فى العالم، مع الآخرين ووسط الأشياء، وعلوم السيرة والانتقال من الشخص إلى المبدأ، ومن عبادة الأشخاص إلى الالتزام بالقضايا، وعلوم الفقه والانتقال من فقه العبادات إلى فقه المعاملات خاصة فى النظام الدولى فى عصر العولمة والعالم ذى القطب الواحد[1].

أما العلوم العقلية الخالصة فقد استحوذ عليها الغرب فى تاريخ العلوم، وجعلها جزءاً من تاريخ العلم وليس العلم إخفاء لمصادره، وأخذ النتائج دون المقدمات، والنهايات دون البدايات مما يسبب أزمة فى العلم. وجعلناها نحن مقرراً جامعياً "تاريخ العلوم عند العرب" تقوم على أن العرب كانوا أسبق من الأوربيين وعلى عظمة العلماء العرب دون معرفة كيف خرج العلم الرياضى والعلم الطبيعى من عقلية القومية، والتوحيد بين الوحى والعقل فى العلوم الرياضية، والوحى والطبيعة فى العلوم الطبيعية، والوحى والتجربة البشرية فى العلوم الإنسانية.

لقد حاولنا ذلك منذ فجر النهضة العربية على نحو انتقائى. كما أعدنا المحاولة على شكل كلى بعد هزيمة يونيو حزيران ١٩٦١. ومازال المشروع قائماً لم يتم. فتلك مهمة فريق من الباحثين لعدة أجيال وعلى الأمد الطويل. إذ مازال الوعى

---

(١) انظر دراساتنا فى علوم القرآن "الوحى والواقع دراسة فى أسباب النزول"، هموم الفكر والوطن جـ١ التراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، ص١٧-٥٦. وفى علم الحديث "من نقد السنة إلى نقد المتن"، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الخامس، القاهرة ١٩٩٦، ص١٣١-٢٤٣. وفى علوم التفسير "مناهج التفسير ومصالح الأمة"، اختلاف فى التفسير أم اختلاف فى المصالح؟، الدين والثورة فى مصر. جـ٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص٧٧-١٢٠. هل لدينا نظرية فى التفسير؟ أيهما أسبق نظرية فى التفسير أم نظرية فى تحليل الخبرات؟ قضايا معاصرة فى فكرنا المعاصر، من التفسير الموضوعى إلى فلسفة التاريخ، قراءة فى السنن التاريخية فى القرآن لمحمد باقر الصدر، قم، إيران ٢٠٠١. وفى علوم السيرة: محمد، الشخص أم المبدأ؟، الدين والثورة فى مصر جـ٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى، ص١٦٣-١٦٧.

العربى يتنفس برئتين. الأولى قوية، ألف عام من المحافظة منذ الغزالى حتى الآن، والثانية تحررية لم تعش أكثر من أربعمائة عام، القرون الأربعة الأولى فيصاب بالاختناق. ويرى العالم بعينين: الأولى قوية معاصرة فى المحافظة والحرفية، والثانية مجرد بصيص ضوء ليبرالى فيكون أقرب إلى الأعور. ويسير على ساقين: الأولى طويل للغاية فى الشعائرية والطقوس والثانى قصير فى العقلانية والبرهان فيكون أقرب إلى الأعرج. طائر بجناحين. الأول قوى شديد فى القطع واليقين، والثانى ضعيف مترهل فى الحوار والتشكك فينحرف الطائر نحو الجناح الأقوى. ولم الاستعجال حتى لا نكبو من جديد بدعوى اختصار المراحل واللحاق بالزمان وتكون النتيجة العودة إلى المراحل الأولى، وضياع الزمن، وتوقف التاريخ؟

٦- وفى هذا التصور العام للمرحلة التاريخية الراهنة من منظور كلى شامل يمكن إدراك أهمية النقد الحضارى المزدوج للموروث القديم وليس للوافد الغربى الحديث فقط كالعولمة، ونظام العالم الجديد، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والأقليات، وتلوث البيئة، والطائفية، والعنف، والنزعات العرقية الجديدة. يضاف إلى ذلك النقد الاجتماعى لمشاكل السكان والبطالة والطفولة والشيخوخة والأمراض الاجتماعية وعلوم الحياة، والجينات، والهندسة الوراثية. بل ويعنى أيضاً النقد الاجتماعى المباشر للتسلط والنظام الأبوى والتجزئة والتزلف والظلم الاجتماعى والتغريب ولامبالاة الناس.

إن المحاور الثلاثة للنقد الحضارى: المثقف العربى والسلطة، تحرير المرأة، الحداثة وما بعد الحداثة لهى تجليات لنفس الموضوع، جذور التسلط فى الموروث القديم، علاقتنا بالغرب وفى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش دون الوقوع فى الاضطراب الزمانى Anachronism، ونعيش مرحلة لسنا فيها، ونضع أنفسنا فى مسار غيرنا. فنحن مازلنا نتحول من القديم إلى الجديد، من الماضى إلى الحاضر، ومن التراث إلى المعاصرة. ولم نحقق بعد الحداثة القائمة على مُثل التنوير: العقل، والطبيعة، والإنسان، والحرية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، والتقدم. ومن ثم

يكون نقد العقل، والحداثة، والقانون، والنظام، والنسق والتقدم وكتابة "وداعاً أيها العقل" و"ضد المنهج" نوعاً من الاضطراب الزمانى فى مراحل التاريخ وتداخل مسارات الحضارات، وأقرب إلى نهاية العصور الحديثة الغربية من بداياتها "قواعد لهداية الذهن"، "مقال فى المنهج". ومن ثم كان السؤال الضرورى السابق على النقد الحضارى "فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش"؟

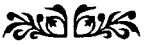

ثقافة المقاومة

تحية لانتفاضة الاستقلال فى عامها الأول

٢٠٠٠/٩/٢٩ — ٢٠٠١/٩/٢٩

فى هذه اللحظة التاريخية يشعر العرب بالعجز وامتهان الكرامة والتضحية بشعب عربى بأكمله، نسائه وأطفاله وشيوخه وشبابه، ويكاد يضيع ما تبقى من فلسطين ٢٢٪ أما عيونهم كما ضاع الباقى ٧٨٪ فى ١٩٤٨، وبالتالى تضيع فلسطين كلها فى قلب العالم الإسلامى وفى عاصمتها القدس، والحرم الشريف، كما ضاعت الأندلس منذ أكثر من ستة قرون بسقوط غرناطة آخر مدنها. كان الغزو للأندلس من الشمال، من الغرب المسيحى ضد المسلمين واليهود فى الجنوب، والآن الغزو فى فلسطين من الغرب المسيحى اليهودى ضد المسلمين. عاش اليهود فى حماية المسلمين فى الأندلس. وهاهم يعيشون فى حماية الغرب الصليبى فى فلسطين، والمسلمون خاسرون فى الحالتين، فى الماضى والحاضر. لا يعنى ذلك أن ما يقع فى فلسطين حرباً دينية بل يعنى أن الصهيونية هى إحدى الإيديولوجيات الاستعمارية وريثة القرن التاسع عشر، جمعت بين الاحتلال الاستيطانى والعنصرية والرومانسية والعودة إلى الأرحام، وأن فلسطين آخر بقعة من الاستعمار الغربى الحديث، وأن المقاومة الفلسطينية هى حركة تحرر وطنى، وأن انتفاضة الاستقلال هى آخر مرحلة من مراحل الثورة الفلسطينية ضد الاستعمار الاستيطانى بعد أن

(*) مجلة "وجهة نظر"، أكتوبر ٢٠٠١.

ماذا يفعل المفكر العربى؟ هل تصيبه حالة العجز العام وامتهان الكرامة التى تصيب الجميع، حاكم ومحكوماً أم أنه يحاول أن يقاوم، ويبرز فكر المقاومة، وفلسفة المقاومة، "ولاهوت" المقاومة؟ ألا يستطيع أن يقاوم بسلاحه، الفكر إن عزت عليه المقاومة بالسلاح الفعلى؟ يستطيع المفكر مع المقاومة أن يكون هذا البصيص من الضوء فى ظلام السكوت الرهيب الذى يبدون عن بعد، الرأى العام العربى، والشهداء، وصياح أين العرب؟ والمفكر بطبيعته يشعر بأن العالم بين يديه، وبأنه يستطيع تحقيق مدنيته الفاضلة، ملكوت السموات فى الأرض، لا فرق بين الحلم والواقع، بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن. ألم يرد فى تراثنا أن العلماء ورثة الأنبياء؟

يستطيع المفكر العربى أن يؤصل فلسفة للمقاومة فى اتجاهين محاولاً الإجابة على سؤالين:

الأول ما هى أسباب السكون الحالى فى الوطن العربى، حكام ومحكومين الذى يدهش الصديق قبل العدو مما جعل الوقوف إلى جانب المقاومة الفلسطينية محدوداً داخل الوطن العربى وعند أصدقائهم التقليديين فى دول عدم الانحياز وفى المعسكر الشرقى القديم، وفى أوربا بالغربية، وانحياز أمريكا الكلى للكيان الصهيونى؟

والثانى هل غاب مفهوم المقاومة فى ثقافتنا الموروثة، وإذا حضر ففى أى جانب منها؟ وهل يمكن إعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث ترتكز على المقاومة بدلاً من الاستسلام للقاهر الداخلى أو العدو الخارجى، وتنشط الحركات الشعبية وتجند الجماهير؟

وللإجابة على السؤال الأول يمكن التعرف على أسباب العجز العربى حتى يمكن معالجتها، فالتشخيص يأتى قبل العلاج فى الاحتمالات الآتية دون أن يكون لأحدها الأولوية على الآخر بل قد تتضافر جميعها لخلق هذه الحالة من السكون العربى.

أولا: لماذا العجز العربى؟

١- هل عند النظم العربية عقدة ١٩٤٨، هزيمة الجيوش العربية وضياع نصف فلسطين، تمنعها من الوقوف بجانب انتفاضة الاستقلال ٢٠٠٠ حتى لا يضيع النصف الآخر؟ هل لدى العرب عقدة الحروب العربية الإسرائيلية بعد ١٩٤٨، العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ ثم الطامة الكبرى فى ١٩٦٧؟ ولماذا لم تستطع حرب الاستنزاف ١٩٦٩-١٩٧٠ وكذلك حرب أكتوبر ١٩٧٣ وانتصار المقاومة فى جنوب لبنان حل عقدة التفوق العسكرى للعدو الصهيونى؟ هل تغيرت موازين القوى الدولية بعد نهاية عصر الاستقطاب ولم يعد للعرب حليفهم التقليدى كالاتحاد السوفيتى ودول عدم الانحياز ومعسكر العالم الثالث وانحياز أمريكا التقليدى كلية إلى الكيان الصهيونى وكما وضح فى اجتماع مجلس الأمن الأخير الذى لم يستطع إصدار قرار ولا حتى بيان لتأييد الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطينى وفى إنسحاب أمريكا وإسرائيل من مؤتمر مكافحة العنصرية فى دوربان؟

لقد دخلت الجيوش العربية الحرب فى ١٩٤٨ وقبل أن تبلغ القومية العربية ذروتها فى الخمسينات والستينات. وكان من نتائجها الثورات العربية فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات مثل الثورة المصرية ١٩٥٢ والتى كانت من أسبابها هزيمة الجيش فى فلسطين وجريمة الأسلحة الفاسدة. فهل هناك إمكانية لثورات عربية أخرى بعد نصف قرن كرد فعل على هذا الصمت العرب وعجز العرب عن الوقوف بجوار المقاومة الفلسطينية بالقول لا بالفعل، وبالسلاح لا بالبيان، وبالبيان لا بالنداء؟

لقد دخل العرب الحرب فى ١٩٤٨ نجدة لاخوتهم فى فلسطين قبل النظم الثورية العربية، وانهزموا وضاعت نصف فلسطين. وربما لن يدخل العرب الحرب عام ٢٠٠١ ويضيع النصف الآخر من فلسطين ويهزمون أيضاً تاريخياً دون حرب أو قتال. فالعرب خاسرون فى حالة الحرب وفى حالة العجز، فى الإقدام وفى الإحجام إلا أن تظهر إبداعات جديدة للمقاومة بين حرب الجيوش النظامية والمقاومة الشعبية الوحيدة الصامدة بمفردها.

٢- هل حصار نظم الحكم العربية بين الضغوط الخارجية، أمريكا وإسرائيل والضغوط الداخلية، الشعوب والرأى العام، هو المسئول عن حالة العجز العربى؟ لقد ارتبطت مصالحها بالخارج بالاعتماد شبه الكامل على القوات الأمريكية التى مازالت رابضة بالخليج وعلى المعونة الأمريكية لمصر والأردن وعلى التسليح الأمريكى والاستثمار الأمريكى وطبقة رجال الأعمال فى الداخل، ونمط الحياة الأمريكى والثقافة الأمريكية عبر قنوات الفضاء. ولما كانت نظما فى مجموعها لا تستمد شرعيتها من انتخابات حرة ونظم ديموقراطية سليمة فإنها تجد فى التأييد الأمريكى فى الخارج تعويضاً عما ينقصها من شرعية دستورية فى الداخل.

وبعض الأنظمة العربية، وفى مقدمتها الشقيقة الكبرى، ودولة من دول الطوق عقدت معاهدات سلام بينها وبين الكيان الصهيونى مما يقيدها بالقوانين الدولية وبالمعاهدات التجارية وكما بدا فى قرارات مؤتمرات القمة العربية ووزراء الخارجية الأخيرة واستثناء مصر والأردن منها.

وفى الطرف الآخر يضغط الرأى العام العربى، وتتحرك التنظيمات الشعبية وأحزاب المعارضة إسلامية وقومية والتى مازالت تحن إلى الخمسينات والستينات والتى بلغت فيها حركات التحرر الوطنى والقومى مداها. والنظم العربية مازالت فى معظمها ترث شرعيتها من هذين العقدين من الزمان، ملكية كانت أم عسكرية، قريش كانت أو الجيش. فكيف تكوّن هذه النظم الجيل الثانى من حركات التحرر الوطنى وهى تترك آخر حركة منها وحيدة معزولة، شعبا أعزل يقاوم بأطفاله ونسائه وشيوخه جيشاً من أعتى جيوش العالم؟ وإذا استمرت حالة العجز على ما هى عليه قد تتفجر الهبات الشعبية فى كل أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى كما حدث الأمر فى بداية الانتفاضة ومحاولة قمعها بالحديد والنار.

٣- هل تعود العرب فى نصف القرن الأخير، عصر الثورة العربية، على لصمت نظراً لغياب الأحزاب السياسية الشعبية القادرة على تحريك الجماهير؟ كانت حركة الشارع العربى فى الأربعينات نشطة ومؤثرة، الحركة الوطنية فى مصر

وسوريا ولبنان والمغرب العربى. وضربت دمشق بالقنابل فى ١٩٤٥. واغتيل حسن البنا فى ١٩٤٩.

جاءت الثورات العربية عن طرق الجيوش الوطنية التى كان ضباطها الأحرار روافد فى الحركات الوطنية، الإسلامية كالإخوان المسلين أو الماركسية كحدتو أو مصر الفتاة أو التيار الوطنى الشعبى التلقائى وريث ثورة ١٩١٩. وبعد أزمة مارس ١٩٥٤ انفردت الثورة المصرية بالحكم بعد حل الأحزاب فى ١٩٥٣ وتنظيم الإخوان فى ١٩٥٤. واستقرت بعد تأميم القناة فى ١٩٥٦. وثق الناس بعبد الناصر وسلموه قيادة العمل الوطنى عن طريق التأييد الشعبى المباشر والخطاب السياسى للجماهير، وتوالت الأحداث تباعاً: الوحدة مع سوريا فى ١٩٥٨، قوانين يوليو الاشتراكية فى ٦٢-١٩٦٣، مقاومة الحلف الإسلامى فى ١٩٦٥، حرب الاستنزاف فى ١٩٦٩-١٩٧٠. وقامت الثورة العراقية فى ١٩٥٨، واليمنية فى ١٩٦٤، والليبية فى ١٩٦٩. وتحول عبد الناصر إلى رمز لحركات الاستقلال الوطنى، وبطل للقومية العربية، وأحد زعماء العالم الثالث ودول عدم الانحياز منذ باندونج ١٩٠٥ حتى بلجراد ١٩٦٤.

ولما كان من الصعب خلق تنظيم شعبى بديل بعد حل الأحزاب والجماعات السياسية التى كانت موجودة قبل ١٩٥٢ والتى تكون فيها الضباط الأحرار، ولم تستطع هيئة التحرير ولا الاتحاد القومى ولا الاتحاد الاشتراكى العربى تجنيد الجماهير عن اختيار حر واقتناع سياسى، بدأت الجماهير فى إدارة ظهرها إلى التنظيمات السياسية للثورة وهى تولى قائدها ثقتها المباشرة كما ظهرت وهى تودعه بالملايين إلى مثواه الأخير.

وبعد أن انقلبت الثورة على نفسها من داخلها وبنفس رجالها فى ١٥ مايو ١٩٧٠ لم تهب الجماهير دفاعاً عن مكتسباتها، لا الفلاحين عن الأراضى التى وزعت عليهم، ولا العمال على المصانع التى شاركوا فى إدارتها، ولا الطلاب عن جامعاتهم الوطنية ضد الجامعات الخاصة، ولا تحالف قوى الشعب العامل عن سيطرة طبقة رجال الأعمال على السياسة والمال.

٤- وبعد ما يقرب من نصف قرن على الثورة المصرية خرج الجيل الأول عليها فى مظاهرات ميدان التحرير فى ١٩٧١-١٩٧٢. وتضامنت مع الأجيال قبل ١٩٥٢ فى معارضة زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ بعد مظاهرات يناير فى ١٩٧٧. ومعاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٨. واتفاقية السلام فى ١٩٧٩، وقرارات سبتمبر ١٩٨٠ والتى أدت إلى تصفية رأس النظام فى أكتوبر ١٩٨٠. وخرج جيل ثان متضامن مع الأول فى مظاهرات عارمة ضد العدوان الأمريكى على شعب العراق فى ١٩٩١ ثم فى عام ١٩٩٨. ومازال الجيل الثالث، جيل الصلح، يرفض التطبيع، ويتضامن مع انتفاضة الاستقلال فى الجامعات أثناء العام الدراسى. ومازالت النقابات والاتحادات والجمعيات والتنظيمات الأهلية تمثل الخيط الرفيع إلى يدل على حيوية الشعب، ويشير إلى حركة الجماهير.

يظل السبب الرئيسى فى سكون الجماهير، استبعادها من المشاركة السياسية على مدى نصف قرن، عمر الثورة المصرية، باستثناء الهبات الشعبية مثل حركة الطلاب فى مارس ١٩٦٨ ضد أحكام الطيران، ومظاهرات الطلاب فى ميدان التحرير فى ١٩٧٠-١٩٧٢ ضد احتلال سيناء والأراضى العربية، ويناير ١٩٧٧ ضد غلاء الأسعار، ويناير ١٩٩١ ضد العدوان على العراق. لم تنشأ أحزاب تلقائية شعبية مثل حزب الوفد أو التنظيمات الشيوعية العديدة أو جماعة مثل الإخوان المسلمين ينتسب إليها الناس طواعية. يؤمنون بها، وينشطون من خلالها.

ومازالت جماعات حقوق الإنسان والمرأة والمجتمع المدنى محدودة الأثر، نخبوية تدافع عن نفسها ضد تشويه صورتها بأنها غربية التوجه فى المفاهيم والدعم المالى. مازالت مطاردة وملاحقة من أنظمة الحكم. ومن ثم تختفى هذه الهبات والانتفاضات والجماعات النشطة فى بحر العزوف عن العمل السياسى فى نصف القرن الأخير.

٥- قد يكون غياب الخيال السياسى عند القادة العرب أحد أسباب العجز العربى. فالطريق ليس مسدوداً تماماً. عندما كان عبد الناصر يفاوض أوجين بلاك

رئيس البنك الدولى لبحث تمويل مشروع السد العالى، واشترط مدير البنك أن تدخل مصر فى حلف بغداد، رأى عبد الناصر أمامه صورة دليسبس الذى كان يفاوض إسماعيل على حفر القناة. وجاءته فكرة التأميم. وقد أتت النظم العربية فرص عديدة كى تتم فيها اليقظة، ويبدع فيها الخيال السياسى مثل غزو جنوب لبنان وحصار بيروت، ضرب المفاعل النووى العراقى، اغتيال أبى جهاد فى تونس، خطف الطائرة المصرية فوق قبرص، التدعيم الأمريكى الكامل للكيان الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى، ولكن نقص الخيال السياسى لم يحول هذه الأعراض السياسية إلى مبادرات تاريخية تستطيع إخراج العرب من هذه الحالة من العجز التام. وفى حالات الخوف يقل الخيال.

٦- لقد تقبل العرب فى تاريخهم الحديث عدة إهانات متكررة مثل حصار العراق واستمراره أكثر من عشر سنوات بعد حرب الخليج الثانية بلا مبرر، واستمرار الغارات والقصف اليومى. وقبول العرب الحصار دون أن يتجرأ نظام عربى على خرقه حتى يتحول الوطن العربى إلى عراق كبير تحاصر أجوائه وبحوره ومحيطاته وسواحله. والغرض من ذلك كله تدمير العراق عسكرياً وتشتيت القوى العربية، وإضعاف الجبهة الشمالية بعد محاصرة إيران حتى يتم تصفية القضية الفلسطينية. ويتم حصار ليبيا قبل أن تدان أخذاً بالشبهات، وقبول العرب الحصار دون أن يجرأ أحد قادة العرب على خرقه فى حين استطاع بعض القادة الأفارقة ذلك مما جعل ليبيا تتحول من قلعة للقومية العربية إلى زعيمة للتكتل العربى الأفريقى، وتحويل منظمة الوحدة العربية إلى الاتحاد العربى الأفريقى. ويتم تهديد السودان ومساعدة المتمردين فى الجنوب وضربه بدعوى امتلاكه مصنعاً للأسلحة الكيماوية من أجل فصل الجنوب عن الشمال. أصبحت أمريكا متحكمة عن بعد فى الفضاء العربى. وقبل العرب ذلك. وتحول إلى جزء مألوف من حياتهم اليومية يتعودون عليه يوماً وراء يوم. أصبح العرب سجناء داخل أوطانهم لا يتحركون فيه إلا بإذن من الأمم المتحدة التى تخضع للولايات المتحدة الأمريكية.

٧- أما الحركات الإسلامية المعاصرة خارج فلسطين فإنها عادت بقوة بعد أن أخرجها النظام السياسى من السجون فى السبعينات لتصفية الناصرية، ثم انقلبت عليه بعد اتفاقيات الصلح مع الكيان الصهيونى. ومازالت تريد الانتقام من كل الحركات العلمانية الناصرية والقومية والماركسية التى استبعدتها فى الخمسينات والستينات من العمل السياسى بعد أن كانت بؤرة الحركة الوطنية ومصدرها. هدفها الأول تصفية النظم السياسية فى الداخل قبل التوجه نحو الخارج تحت التأثير فتوى ابن تيمية بتكفير من لا يحكم بشريعة الله. مازالت هى القادرة على تحريك الجماهير والنزول إلى الشارع وتنظيم المظاهرات ضد العدوان الأمريكى على شعب العراق ولصالح المقاومة الفلسطينية. أما فى فلسطين فإنها توحدت فى ميدان القتال مع باقى الحركات الإسلامية والوطنية والقومية والماركسية فى مواجهة الاحتلال الاستيطانى، لا فرق بين حماس والجهاد والديموقراطية والشعبية والعرب الأفغان.

مازالت خارج فلسطين مقاومتها فى الداخل، ضد النظم السياسية القائمة. شعاراتها وتنظيماتها ومظاهرتها لصالح المقاومة الفلسطينية "الحاكمية لله"، "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل"، "تطبيق الشريعة الإسلامية" كلها موجهة إلى الداخل أكثر منها إلى الخارج. وإذا كان منها فى الخارج فإنه يتعلق بالداخل مثل "خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود"، "إن الأقصى قد نادانا، من سيعيد القدس سوانا". ليس منها شعار "تحرير الأرض"، "إزالة آثار العدوان"، "التحرر الوطنى"، "الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى" لأنها شعارات علمانية، وتحقق مضمونها الشعارات الإسلامية الأولى.

٨- وربما كان لحربى الخليج الأولى والثانية أثر على زهد الناس فى السياسة وعدم تحمسهم للعمل السياسى. فقد وقعت حرب الخليج الأولى بطعن الثورة الإسلامية فى إيران فى الظهر بعد عامها الأول وهى فى ذروة تحدى الاستكبار الأمريكى، وبإيحاء من الولايات المتحدة حتى تتخلص من الثورتين معاً، الثورة الإسلامية فى إيران والقومية العربية فى العراق، وإيقاع تناقض بينهما وتحت ذريعة

تصدير الثورة الإسلامية أو تحريرعربستان. كانت الثورة الإسلامية فى إيران ظهير الثورة العربية ونصيراً لها. وفى حرب الخليج الثانية جاءت الضربة للكويت من العراق وليس من إيران، من الشمال وليس من الشرق، من القومية العربية ودعاتها وليست من الثورة الإسلامية وأئمتها. أراد العراق أن يملأ دور مصر الذى بدأ فى الغياب. وأراد حاكم العراق أن يقوم بدور عبد الناصر بعد اختفائه دفاعاً عن الثورة الفلسطينية أثناء مذبحة سبتمبر - ايلول ١٩٧٠.

وتوالت مآسى العرب، الحرب الأهلية فى لبنان ثم فى الجزائر والصومال، وانشغال المغرب بقضية الصحراء، وتونس بالجماعات الإسلامية ونشاطها، وليبيا بأفريقيا. والسودان بالجنوب، والأردن بجماعات المعارضة، واليمن بالمحافظة على الوحدة، والبحرين بالتحول الديموقراطى، وقطر بالبحث عن دور، والكويت بالأسرى، وفى عصر العولمة الذى يتجمع فيه العالم كقرية واحدة يتفكك العرب، ويتشرذمون بين عرب وبربر وأكراد، سنة وشيعة، دروز وعلويين، نجد والحجاز، شمال وجنوب، ومسلمين وأقباط.

٩- وربما أدت سياسة الانفتاح الاقتصادى وتخلى الدولة عن دورها فى التخطيط الاقتصادى ودعم المواد الأولية والإسكان للطبقات المحرومة إلى ازدياد درجة الفقر واتساع رقعة الفقراء. مما دفع كل مواطن للسعى وراء لقمة العيش، وجرى الشباب وراء الوظيفة والاستقرار الاجتماعى. تلهيهم عن أحوالهم البرامج الدينية، وانتشار الإعلام الدينى وكتب الجنة والنار، وعالم الجنة والملائكة، تعويضاً لهم عن مآسى الدنيا. وذاعت المسلسلات التليفزيونية. وجلس المواطن بالساعات كل يوم أمام الشاشة الصغيرة، ينتقل من مسلسل إلى آخر ليعرف الخاتمة، نهاية النصاب والمحتال والمخادع والمنحل والمهرب وتاجر المخدرات. وانتشرت مباريات كرة القدم المحلية والإقليمية والدولية لحرب الأندية والفرق القومية وكأنها حرب بين معسكرات إيديولوجية وحروب استقلال وطنى يشارك فيها الجماهير فى الساحات الرياضية مع اللاعبين أو ضدهم فتتحول إلى ساحات حرب، يسقط فيها

الشهداء. وانتشرت مقاهى "الشيشة" للرجال والنساء، وعمت الفنادق الكبرى فى مداخلها، وأصبحت قاسماً مشتركاً فى معظم الأفلام. بل انتشرت ديانات الشباب الجديدة، المخدرات، وعبادة الشيطان، والشذوذ الجنسى، وجماعات اللهو والجريمة المنظمة. فمن من هؤلاء يتحول من الأسى والحسرة على فلسطين إلى العمل والمقاومة فى فلسطين؟

١٠- ربما تعود الناس على أخبار الانتفاضة كل يوم، الأولى فى ١٩٨٧ والثانية منذ ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠. وأصبحت جزءاً عادياً من أخبار اليوم مثل مقدونيا وأيرلندا والشيشان وكوسوفو، وقبلها البوسنة والهرسك. ومازالت أخبار المذابح فى الجزائر مستمرة كل يوم بالعشرات. لم يعد فيها شئ غريب يستدعى الانتباه. ولا يحرك سقوط الشهداء يومياً معرفة جديدة إلا من قسوة العدو ووحشيته وبسالة المقاومة وشجاعتها، وهو الاعتراف بالحق، والتعاطف مع المظلوم، وهو أضعف الإيمان. وأحياناً لا تكون أخبار الانتفاضة فى مقدمة النشرة الإخبارية اليومية. بل تأتى بعد مقابلات الرؤساء وأسفارهم، أقوالهم وتصريحاتهم، زياراتهم وحواراتهم مع المؤسسات المالية والاقتصادية. ثم تأتى أخبار الانتفاضة كأحداث يومية دون تحليل أو تعليق وفى مدة قصيرة تقل عن الأخبار المحلية، أخبار الرياضة والنشرة الجوية. بل إن القنوات الفضائية الأخرى، قناة الجزيرة وغيرها، بالرغم من تغطية الانتفاضة إلا أن أثرها إخبارى خالص لا يتجاوز حد التقارير الإخبارية من المراسلين والتعليقات من المختصين وتصريحات المسئولين حتى تتفرد على باقى القنوات بالسبق الإعلامى، وفنية التغطية، والمهارة الإعلامية، وبعض النداءات بالتبرع، وفتاوى صحة الاستشهاد.

ثانيا: هل هناك ثقافة للمقاومة فى تراثنا القديم؟

للإجابة على السؤال الثانى: هل هناك ثقافة للمقاومة فى تراثنا القديم؟ وأين عاشت؟ ولماذا لم تترسب فى وعينا الثقافى؟ وهل يمكن إعادة بناء الثقافة الوطنية

بحيث تكون وعاء نظرياً للمقاومة؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال المركب على النحو الآتى، وإن صمود المثقفين لا يقل أهمية عن صمود المقاتلين:

١- جاء الإسلام كى يحدث ثورة فى حياة العرب، ثورة المستضعفين، الفقراء والعبيد، ضد المستكبرين، والأغنياء والسادة، داعياً إلى الحرية والمساواة. وأسس نظاماً يقوم على البيعة العامة واختيار الناس لإمامهم، فالإمامة عقد وبيعة واختيار. كانت خطبة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة نموذج العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وظل الأمر شورى بين المسلمين. فإذا ما ظلم الحاكم فهناك طرق للخروج على الحاكم الظالم، ابتداء من النصيحة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واللجوء إلى قاضى القضاة، ثم الخروج عليه كإجراء أخير. كانت المقاومة فى الداخل، رقابة على الحكام من أجل تقويم اعوجاجهم ولو بالسيوف. ثم كان الفتح فى الخارج فى لحظة تاريخية والقوتان فى الغرب والشرق، الرومان والفرس، على وشك الانهيار. فبرزت القوة التاريخية الثالثة فى الوسط كى ترث الروم والفرس وتؤسس نظاماً عالمياً جديداً للتوحيد بين الشعوب والمساواة بينها. وهو ما تكرر من جديد فى الخمسينات والستينات أثناء حركات التحرر الوطنى إبان الحرب الباردة.

٢- ولما أخذ الأمويون الحكم عنوة، بعصى معاوية وجزرته، واستعصى على المعارضة الشرعية مواجهته انقسمت إلى أربعة اتجاهات. الأول المعارضة العلنية بالسلاح كما فعل أئمة آل البيت، فأعظم شهادة قول الحق فى وجه إمام ظالم، وتكوين جماعات مسلحة خارج المدن تنقض عليها من الخارج إلى الداخل، ومن الصحراء إلى الأسواق، لا فرق بين رجل وامرأة وشيخ وطفل، فالأطفال على دين آبائهم. وهؤلاء هم الخوارج.

والثانى المعارضة العلنية فى الداخل عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو الحسبة وهى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية، النصيحة فى الدين، ورفع الأمر إلى قاضى القضاه إذا ما خرق الإمام شروط العقد، صالح الأعداء، وتهاون فى تقوية الثغور، و"الذب عن البيضة" بتعبير القدماء. وهم المعتزلة.

والثالث حركة سرية فى الداخل لتقوية الروح، وتكوين جماعة متآلفة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيما بينها، تتعلم ثقافة العصر، وتعمل على إعلاء الروح. وتنتظر اليوم الموعود الذى يظهر فيه إمام الزمان ليقود الثورة، وتتحول الجماعة من السر إلى العلن، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهم الشيعة.

والرابع معارضة سلبية فردية عن طريق الصمت أو الحديث رمزاً وألغازاً، تدعو إلى ترك الدنيا بمن فيها على من فيها، والزهد فى العالم الذى يرغب الناس المزيد منه، فلا يعرف الله إلا ببطن جائع وبدن عار. إن استعصى صلاح العالم الخارجى فعلى الأقل الإبقاء على طهارة العالم الداخلى. إن استحالت المقاومة فى الخارج فعلى الأقل تستمر المقاومة فى الداخل، مقاومة أهواء النفس، والصمود أمام تيار البذخ والترف. فالسلطة ليست فى البدن بل فى الروح. والسلطان ليس هو القابع فى القصر بل هو القابع داخل النفس. وهم الصوفية. وهو ما تكرر فى تاريخ العرب المعاصر. أخذت الجماعات الإسلامية المسلحة طريق الخوارج. وأثرت أحزاب المعارضة الشرعية طريق المعتزلة. واستأنفت الثورة الإسلامية فى إيران طريق المهدى المنتظر. وفضلت جماهير الأمة، طريق الصوفية، طريق العجز والهوان.

وبرز فى العقائد نسقان: نسق أشعرى يدور حول الذات والصفات والأفعال أى حول التوحيد ولا شئ سواه، ونسق اعتزالى يدور حول أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والحسن والقبح العقليين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. واستقر النسق الأشعرى فى الثقافة الموروثة، التوحيد، فى حين انزوى النسق الاعتزالى الذى يقرن التوحيد بالعدل. فلا توحيد بلا عدل، ولا عدل بلا توحيد. وجعل "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" أصلاً من أصول الدين كما أن الإمامة أصل أيضاً عند الشيعة. وقبلنا أن نكون موحدين فى نظم سياسية تقوم على الظلم بالرغم من محاولة شعر المقاومة التحول من صفات الله إلى صفات المقاومة كما أنشد سميح القاسم:

وكأننا عشرون مستحيل ∴ فى اللد والرملة والجليل

٣- وأفرز الأمويون تصوراً متعالياً للألوهية، ونظّر له الغزالى فى "الاقتصاد فى الاعتقاد"، ينقده ابن رشد ويسميه علم الأشعرية، فالله قادر قدرة مطلقة، تتجاوز إرادته حكمته، يفعل ما يشاء، فعال لما يريد، لا يُسئل عما يفعل وهم يُسألون، يسمع ويبصر ويتكلم ويريد، خالق كل شيء، ورازق كل ذى كبد، ومقدر الآجال والأرزاق والأسعار، ليس فى محل، وقائم بالنفس. وترسب هذا التصور فى الثقافة الشعبية، لا فرق بين تصور الله وتصور السلطان القادر أيضاً على كل شئ والذى يقرر كل شئ ولا يخفى عليه شئ. ويعترف الغزالى بأن السلطان هو الذى أعانه على صياغة هذه العقائد ليدرسها فى "المدرسة النظامية".

وورثنا تصورا آخر يربط الحق بالخلق، والله بالعالم، ويجعل الله أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو التصور الأقرب إلى الفاعلية والنشاط. فالله "إله السموات والأرض"، "رب السموات والأرض"، "وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله". فتحرير الأرض جزء من النشاط الإلهى فى الإنسان، فى مواجهة عدو صهيونى عقد حلفاً بين الله والشعب والأرض وبمقتضاه أعطى الله هذا الشعب هذه الأرض والمدينة المقدسة والمعبد والهيكل. ولا يُعبد إلا فيها فى حين أن "الله" فى التصور الإسلامى فى كل مكان، ويعبد فى أى مكان، ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾.

لقد ثار الحلاج وقاوم الظلم وكان تصوره للألوهية يقوم على الحلول، "أنا الحق"، "ما فى الجبة إلا الله". وكانت معظم الحركات الثورية أقرب إلى الحلول منها إلى المقاومة. ولقد ربط بعض علماء تاريخ الأديان بين المقاومة والتسلط، وبين الحلول والتحرر. وكلاهما مجاز أى تصوران إنسانيان. والبعض الآخر ربط بين المفارقة والتحرر والبحث المستمر عن الأقصى والأبعد، وبين الحلول والتسلط وقبضة الروح على العالم. وبصرف النظر عن الصدق النظرى، ما يهم هو وظيفة التصور فى الحياة العامة، التصور الذى يؤدى إلى التحرر ضد التسلط، وهو التصور الذى عليه تقوم ثقافة المقاومة والذى توارى فى ثقافتنا الموروثة.

ونشأت عن هذا التصور للألوهية عقيدة القضاء والقدر أفرزها الأمويون حتى يستتب الأمر لمعاوية. فالحكم الأموى قدر من الله لا يمكن الفرار منه، "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله"، "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى". وقد تحولت العقيدة إلى ثقافة شعبية وأمثال عامية يكتبها السائقون على عرباتهم والباعة فى محلاتهم مثل "العين صابتنى ورب العرش نجانى"، "المكتوب ما ممنوش مهروب"، "لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع". وليس فى الإمكان أبدع مما كان، ولا يغنى حذر من قدر، والمؤمن المصاب، ولك يوم يا ظالم مما يجعل الخلاص فى المستقبل وليس فى الحاضر، انتظارا وليس مبادرة.

فى حين قامت تصورات أخرى على تأكيد حرية الإنسان واختياره وأن الحرية شرط المسئولية، والمسئولية شرط الجزاء. ضياع فلسطين ليس قضاء مقدراً بل لأسباب خارجية وداخلية، وتحرير فلسطين بمبادرة الإنسان وحركات الشعب وتنظيماته السياسية. إن المقاومة تبدأ بتغليب العوامل الداخلية على العوامل الخارجية، وبالإرادة الذاتية على الإرادة المساعدة، وبتصور الإنسان حراً مختاراً مسئولاً. لا الهزيمة مقدرة على العرب "لا يغنى حذر من قدر" ولا النصر مقدراً على الكيان الصهيونى، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

٤- ولتحديد الصلة بين الله والعالم ينشأ التصور الهرمى للعالم، كلما صعدنا إلى أعلى وصلنا إلى أعلى درجات الكمال وكلما نزلنا إلى أسفل وصلنا إلى أدنى درجات النقص. فالكمال والخلود خارج الأرض، ولا يوجد فى الأرض إلا النقص والفناء. وقد أدى هذا التصور إلى القبول والطاعة والاستسلام والإحساس بالدونية. فإذا أراد الإنسان الرقى فعليه الصعود إلى أعلى وليس التقدم إلى الأمام، التقرب إلى السلطان والسعى نحو المناصب العليا وليس المعارضة مع الشعب وتجنيد الجماهير.

وقد ربط علماء الاجتماع والتاريخ والثقافة بين الثقافة الشرقية والاستبداد الشرقى وجعلوه مرتكزاً على الدين. وهو ما عبر عنه الكواكبى أيضاً فى "طبائع

الاستبداد ومصارع الاستعباد". لا فرق بين الله والسلطان، وصفات الله وصفات السلطان فى الوظيفة الثقافية. لذلك كثيراً ما تدعى السلاطين الألوهية منذ فرعون. فى حين ظهرت تصورات أخرى للمعارضة الشيعية تجعل الدرجات من الماضى إلى الحاضر، ومن الخلف إلى الأمام فى تاريخ النبوة منذ آدم أول الأنبياء حتى محمد آخر الأنبياء. وهو تصور أقدر على المقاومة وعلى الفعل فى التاريخ. الأعلى هو الأمام والأدنى هو الخلف. "فالسابقون السابقون"، "فاستبقوا الخيرات"، "لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر". وهو تصور لم يعش فى ثقافتنا الموروثة. لذلك فشلت تجاربنا التنموية لأنها قامت على التصور الرأسى وليست على التصور الأفقى.

وقد يقتصر التصور الهرمى للعالم على درجتين فقط فينشأ التصور الثنائى للحياة، وقسمة العالم قسمين: الأعلى والأدنى، الكمال والنقص، الصورة والمادة، الجوهر والعرض، البسيط والمركب، المقدمة والنتيجة، الوسيلة والغاية، القديم والحادث، الأول والآخر، الواجب والممكن، الرجل والمرأة، الذكر والأنثى، الخير والشر، الصواب والخطأ، الحلال والحرام، الحق والباطل، النظر والعمل، الواجب والمحرم، الإيجاب والسلب، الإثبات والنفى، الوجود والعدم .. الخ. وشارك فى هذه الثنائية المتكلمون والفلاسفة بعد أن تحول الكلام إلى فلسفة فى العصور المتأخرة.

يتشدد الإنسان مع طرف ويتساهل مع الطرف الآخر. مادام الطرف الأعلى راض فليفعل الطرف الأدنى ما يشاء. تطهر من جانب، ومادية مقنعة من جانب آخر. وينتهى هذا التصور إلى نوع من الازدواجية المتعادلة، ترضى الآخرة والدنيا، والروح والبدن. فيعيش الإنسان بكل قوة حياة الروح وحياة البدن. وقد تنتهى الازدواجية إلى نوع من النفاق، أن يعيش الإنسان حياة البدن ويتستر بالروح مثل راسبوتين، والراهب الفاسق، والشيخ متلوف. وهو السلوك الغالب فى حياتنا اليومية.

. وتؤدى الازدواجية إلى التعاطف مع المقاومة بالوجدان دون الإعلان أو بالقول دون العمل كما هو الحال فى الصمت العربى الآن. والساكت عن الحق شيطان أخرس. فى حين تقتضى ثقافة المقاومة التوحيد بين المستويين، القول والعمل،

الفكر والوجدان، الداخل والخارج، من أجل توحيد شخصية المقاوم، وتوحيد طاقاته فيصبح كالسيف القادر على القطع دون أن ينكسر الحد.

٥- كما ورثنا من التراث القديم موقف المرجئة فى علاقة الإيمان بالعمل. فكل من قال "لا اله إلا الله" يكون مسلماً بصرف النظر عن أعماله التى يتولاها الله يوم القيامة. فالعمل ليس جزءاً من الإيمان. تكفيه الشهادة ولو بالشفتين وحتى لو أضمر الكفر. فنحن لم نشق على قلوب الناس. لذلك سموا مرجئة، لإرجائهم العمل عن الإيمان، يفصل الله فيه يوم القيامة. فمادام الأمويون يؤدون الشهادة بل يقيمون الصلوات ويبنون المساجد تجب لهم الطاعة ولا يجوز الخروج عليهم. وربما أراد البعض حقن الدماء فى عصر الفتنة وتوحيد الأمة مثل الحسن بن على الذى رفض الانضمام إلى أى من الفريقين المتحاربين. وهو التصور الذى ساد فى ثقافتنا الموروثة.

وأفضل للمقاومة الآن جعل العمل جزءاً من الإيمان. فمن لا عمل له لا إيمان له. ومن يكتفى بالتعاطف مع المقاومة الفلسطينية يؤيدها بالدعاء بالنصر ويشجب قسوة العدو فإن إيمانه ناقص. ومن ثم يكون موقف الخوارج بالنسبة للمقاومة، العمل جزء لا يتجزأ من الإيمان، أفضل حتى من موقف المعتزلة الذين يعتبرونه فى منزلة بين المنزلتين، منافقاً أو عاصياً. ومن ثم لا يصدق اتهام بعض المستشرقين بأن العرب ظاهرة صوتية، ووصف أحد شعرائنا بأننا دخلنا الحرب بمنطق الناى والربابة التى ما قتلت ذبابة، ورؤيتنا لأنفسنا بأننا مناضلو صالونات، بضاعتنا الكلام، وأن الكلام عالم مستقل بذاته، مكتف بنفسه، وان الخطاب السياسى للحاكم هو النضال السياسى للمحكوم.

٦- وفى الأخرويات فى علم العقائد، النبوة والمعاد خارج الزمان. النبوة تاريخ البشر الممثل فى قصص الأنبياء، والمعاد مستقبل البشرية الممثل فى البعث والنشور والحشر. وهو تاريخ خارج العالم من الماضى إلى المستقبل. وما الحاضر إلا الممر الوهمى بين البعدين الآخرين للزمان. ما الإنسان إلا عابر سبيل فى هذا

العالم. هو فيه وليس منه. فى حين أن التصور الآخر، أن النبوة جزء من تاريخ البشر، وأن المعاد ومستقبل البشرية والتفاؤل بالنصر قد يعطى للمقاومة أساساً نظرياً فى التاريخ، أنها جزء من حركة التاريخ وتراكم خبراته المستمرة. وما استقر فى وجداننا الثقافى هو أننا على راحلة، فى سفر، عابروا سبيل منذ الفراعنة القدماء حتى الدعاة المحدثين.

وبدلاً من أن يكون التاريخ فى تصاعد حتى اكتمال النبوة ثم فى انهيار تدريجى حتى نهاية الزمان، جيلاً وراء جيل، من الأفضل إلى المفضول، من النبوة إلى الخلافة حتى الملك العضود، من الصحابة إلى التابعين إلى تابعى التابعين، من السلف الطاهر إلى الخلف الذين أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات مما يبعث على التشاؤم، يكون للتاريخ تصور آخر أقدر على المقاومة، تاريخ فى تطور مستمر وارتقاء دائم حتى يظهر المهدى فيملأ الأرض عدلاً كما مُلِئَت جوراً. ولا يقوى على الأمام الظالم فى الحاضر إلا المهدى المنتظر فى المستقبل، كما لا يقوى على الشيطان فى الخطيئة الأولى إلا المسيح لخلاص الإنسان وفداء البشر، كما لا يقوى على الشيطان الماكر عند ديكارت إلا الفضل الإلهى. وقد حضر هذا التصور فى الوجدان الثقافى للشيعة فثاروا وغاب فى الوجدان الثقافى للسنة فلا انتظروا المخلص ولا ثاروا ضد الحاكم الظالم.

ومنذ القرن الخامس الهجرى أضيفت خاتمة فى كتب العقائد تقليداً للغزالى "فى ما يجب تكفيره من الفرق" واضعاً داخل العقيدة سلاح التكفير. فالحق واحد وليس متعدداً، واحد فى العقيدة، وهى الأشعرية، وواحد فى الشريعة وهى الشافعية، اعتماداً على حديث ضعيف يشكك فى روايته ابن حزم وهو حديث "الفرقة الناجية" الذى له صياغات عديدة بين الزيادة والنقصان، والسؤال والجواب، والعموم والخصوص ومنها "ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة". وعادة ما تكون هذه الفرقة الناجية هى فرقة السلطة، الأموية رمزاً، والتى جمعت بين الأشعرية والشافعية. فأصبحت السلطة مقدسة، معصومة من الخطأ لا يجوز الاعتراض عليها فى حين أن كل أحزاب المعارضة من الفرق الهالكة.

فى حين أن المقاومة لا تقوم إلا على مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة و"الجمع بين الفرق" وليس "الفرق بين الفرق"، التعددية على مستوى النظر والواحدية على مستوى العمل. الحق النظرى متعدد، والحق العملى واحد. وقد قامت الحركة الوطنية فى فيتنام وكوبا على هذا التصور. وكانت كل مقاومات الاحتلال جبهات وطنية متحدة فى فرنسا أثناء الاحتلال النازى، وفى الجزائر أثناء حرب التحرير، وهو أحد مكتسبات المقاومة الفلسطينية، ثورة الاستقلال، فى نهاية عامها الأول. وفى هذه الأيام تتلقى حماس والجهاد الإسلامى العزاء فى الشهيد مصطفى أبو على، الأمين العام للجبهة الشعبية. ففى العمل يتوحد النظر.

٧- ولقد ورثنا من علوم الحكمة القديمة أن المعرفة عطاء وإشراق، وأن المعارف إلهام وفيض، وأن العلوم تشرق فى النفس باتصالها بالعقل الفعال خارج العالم الذى يدبر فلك القمر والذى على أساسه تمت قراءة الطالع اليوم وقام علم التنجيم. فالمعارف إلهية، والحكمة ربانية، والعلوم نبوية. ولا شئ منها يأتى من تحليلات الواقع أو المجتمع أو التاريخ. فغاب التراكم التاريخى فى وجداننا القومى أمام عدو قوته فى ماضيه، وشرعيته فى تاريخه، ومستقبله فى تخطيطه منذ ثلاث آلاف عام "العام القادم فى أورشليم". ونحن نذكر عمر بن الخطاب وصلاح الدين كماضى تليد، نفخر به ونعتز، يعوضنا عما نحن فيه من مآسى وأحزان. كما يلجأ الحكام الذين يستندون إلى شرعية التراث إلى النداء الإعلامى للجهاد كلما زاد الإحساس بالعجز والحصار بين الضغط الداخلى والتبعية الخارجية.

والمنطق مجرد قوانين صورية تعصم الذهن من الخطأ ولا شأن يجدل الواقع أو المجتمع أو التاريخ. والطبيعة طريق إلى ما بعد الطبيعة ودلالة عليها صعوداً من اسفل إلى أعلى، ومن النهائى إلى اللانهائى، ومن المادة إلى الصورة. والإنسان مقسم إلى قسمين، نفس تعشق الصورة، وعلى اتصال بالعقل الفعال واهب الصور، وبدن مادى، موطن الحواس والغرائز والانفعالات، يفنى بعد الموت ويتحول إلى تراب. والمعاد روحانى خالص. صحيح أن إخوان الصفا أضافوا جزءاً عن الإنسان فى

المجتمع "الناموسيات الإلهية والشرعية"، وأن الفارابى جعل العلم المدنى وعلم الفقه وعلم الكلام فى مجموعة واحدة تضم العقيدة والشريعة والمجتمع. ومع ذلك تظل الحكمة فى قسمتها النمطية التى أعطاها لها ابن سينا موزعة بين المنطق والطبيعيات والإلهيات. وتغيب الإنسانيات. فى حين أن ثقافة المقاومة تبدأ من الإنسان والمجتمع والأرض والدولة أى من العلوم الإنسانية والاجتماعية، والإيديولوجيات جزء منها. الإنسان بين عالمين، السماء والأرض، ما ينبغى أن يكون وما هو كائن، المثال والواقع، حامل الأمانة التى رفضت السماوات والأرض أن يحملنها وحملها الإنسان.

٨- وورثنا من التصوف المقامات والأحوال والطريق الصاعد إلى الله، فراراً من العالم وهرباً إلى الله. وتغلغلت مقامات الصبر والتوكل والورع والزهد والرضا والقناعة فى أمثلتنا العامية وثقافتنا الموروثة، وملأت الأغانى الشعبية والمواويل وسير الأبطال. فى حين أن المقاومة تقوم على أن للصبر حدود "فما أصبرهم على النار"، وعلى التمييز بين التوكل الذى يستدعى العمل والجهد والتواكل أو الاتكال الذى ينتظر الفرج، وعلى الغضب والتمرد والثورة والاعتراض والرفض وليس على "الإعراض عن الاعتراض" وهو أحد تعريفات التصوف. وفرق بين الزوايا والرباط، بين القاعدين والمقاتلين.

كما انتشرت بعض أحوال الصوفية فى حياتنا اليومية مثل الخوف والخشية والهيبة والفقر والسكر أكثر من أحوال أخرى مثل الرجاء والأنس والصحو والوجد. وأخذت معانى حسية وليست رمزية، فى علاقة مع البشر وليس مع الله. فالخوف من الناس، والخشية من الضرر، والهيبة من الحكام، والفقد من الأعداء، والسكر من المخدرات. وتحول العالم النفسى الداخلى إلى بديل عن العالم الخارجى وتعويض عنه. فى كل رواية مجذوب، وفى كل فيلم ولى. قبلة الحبيب شحاذة من الله وليست استحقاقا وطبقا لعقلية "هاتولى حبيبى".

فى حين أن المقاومة تقوم على تحليل "حال الأمة"، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وليس فقط أحوال الأفراد. ويتمثل حال الأمة فى تبعيتها أو استقلالها،

قهرها أو حريتها، ظلمها أو عدلها، تجزأتها أو وحدتها، سكونها أو حركتها. المقاومة صراع فى المجتمع. والتاريخ يبدأ من وعى الفرد إلى وعى الجماعة. "الأنا تضع نفسها حين تقاوم" كما قال فشته فى صراعه مع احتلال نابليون لألمانيا. وقانون الهوية الأنا تساوى الأنا يسبق قانون الاختلاف، الأنا مغاير للأنا.

لقد أعطى الغزالى فى القرن الخامس الهجرى الحاكم "أيديولوجية السلطة" فى "الاقتصاد فى الاعتقاد". وأعطى الجماهير "أيديولوجية الطاعة" فى "إحياء علوم الدين". للأول العلم والقدرة والحياة الأبدية والسمع والبصر والكلام والإرادة، وللثانى الطاعة والصبر والورع والرضا والتوكل والخوف والخشية. وبرر شرعية الحكم بالشوكة أى بالانقلاب وليس بالبيعة، وكفر المعارضة العلنية والسرية، بالسلاح أو بالبرهان. وفضل الإمام القوى على الإمام العادل فى حين أن العدل أساس الملك، وأن الكافر العادل أفضل عند الله من المؤمن الظالم. تقتضى ثقافة المقاومة فك هذا الارتباط بين إيديولوجية السلطة وإيديولوجية الطاعة من أجل الرقابة على السلطان وتثوير الجماهير. وتقتضى المقاومة التحرر من القهر الداخلى والخارجى، وثورة الناس على الحاكم الظالم فى الداخل والمحتل فى الخارج.

وفى الموروث القديم طاعة الإمام جزء من طاعة الله مع إساءة تأويل "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم". وتروى أحاديث مرسلة عن ضرورة قتل الخارج على طاعة الإمام. وفيها أيضاً ثقافة الثورة على الإمام، وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة حتى لا يستبد أحد بالناس. ومن يقاوم فى الداخل يكون قادرا على المقاومة فى الخارج، وتحرير الذات أولاً يأتى قبل التحرر من الغير.

٩- وقد يمنع من المقاومة التصور الحرفى للنص. ولقد عرفت حضارتنا بأنها حضارة كتاب، وأن ثقافتها ثقافة نص، وأننا فى تفسيرنا عبدة الحرف. نفسر النص ولا عبرة بالمصالح العامة، وحتى لو نشأ من تفسيرنا الضرر نأخذ بظاهر النص دون تأويل حتى ولو وقعنا فى التجسيم والتشبيه فى العقائد، وفى التشدد

والإضرار بمصالح الناس فى التشريعات وكأن النص هو الغاية وحياة الناس وسيلة. أعطينا الأولوية للنص على الواقع، وللحرف على الروح، وأخرجنا النص من سياقه الداخلى والخارجى. وقد ترسبت هذه الأولوية فى وجداننا الثقافى فأعطينا الأولوية أحيانا للأيديولوجية على المقاومة، وللإطار النظرى على التغيير الفعلى فأصبحت المعركة بين الأيديولوجيات المختلفة بدلا من الصراع بين قوى المقاومة وقوى المحتل.

تعطى ثقافة المقاومة تعطى الأولوية للواقع على النص كما هو الحال فى "أسباب النزول"، الواقع يسأل والوحى يجيب. وحتى لا يكون سؤال لا يكون جواب. بل إن النص يتغير بتغير الواقع، والزمان والمكان وكما هو الحال فى "الناسخ والمنسوخ". ومن ثم هناك حدود للمداخل "الأيديولوجية" للمقاومة. لا تهم نصوصها بل أفعال متمثليها. لا يوجد صدق نظرى للنص الاجتماعى بل هناك صدق عملى، مدى تأثيره وفاعليته. ومن ثم تراجعت الاختلافات النصية بين فصائل المقاومة الفلسطينية لصالح الشهادة والنضال اليومى ضد الاحتلال، لا فرق بين الحركة الإسلامية حماس والجهاد، وبين الحركتين القومية والماركسية. المقاومة حركة تلقائية فى التاريخ تبدأ من رفض الذات العبودية، ورفض المجتمع التسلط. ثم تدون النصوص بعد ذلك. المقاومة سابقة على النص، والنص يدون خبرة المقاومة للأجيال القادمة.

١٠- ومما يزيد الوقوع فى حرفية النصوص وأولوية الأيديولوجيات المغلقة سيادة العلوم النقلية الخمسة على ثقافتنا الشعبية، علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه. علوم القرآن كما حددتها الكتب القديمة مثل السيوطى والزركشى تتضمن تفصيلات عن نزول القرآن وكيفيته، والملكى والمدنى، والبدوى والحضرى، أول ما نزل وآخر ما نزل منه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وبعض المبادئ اللغوية. فى حين تقتضى ثقافة المقاومة تحديد الصلة وظيفياً بين الوحى والواقع وأنماط وطرق وآليات تغييره، وكيفية إدارة الصراع مع المشركين والمنافقين

والحانثين بالعهود مثل اليهود حتى تقوم ثقافة المقاومة على منطق للجدل. ولا يوجد كتاب يمكن أن يستنبط منه حكم بتحريم الصلح مع إسرائيل مثل القرآن الكريم.

وقامت علوم الحديث على جمع الروايات، فإثبات صحة المتن بصحة السند. وانتشرت بعض أخبار الآحاد مما قد يكون لها أثر سلبى على المقاومة مثل حديث "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، وشرح الجهاد الأكبر بأنه جهاد النفس. وقد نبه الفكر الإصلاحى المعاصر مثل المودى وحسن البنا وسيد قطب على خطورة مثل هذه الأحاديث على حركات التحرر الوطنى. تقتضى ثقافة المقاومة تنقية الأحاديث من هذا النوع الذى قد يكون لها مردود سلبى على المقاومة وإبراز الأحاديث التى تحث على المقاومة، وما أكثرها، وأشعار المقاومة وما أكثرها فى أدب المقاومة. والرسول قدوة ليس فقط فى السلوك الفردى ولكن أيضا فى كيفية إدارة الصراع وكسب المعارك والانتصار على الأعداء.

واعتمدت علوم التفسير على العلوم القديمة ونشأت عليها. فنشأ التفسير التاريخى كالطبرى وابن كثير اعتماداً على علوم التاريخ ومستواها فى ذلك العصر اعتماداً على الروايات، والتفسير اللغوى اعتماداً على علوم اللغة مثل "إعراب القرآن" للزجاج، والتفسير الفقهى اعتماداً على علوم الفقه مثل "أحكام القرآن" للقرطبى، والتفسير الكلامى (الاعتزالى) مثل "الكشاف" للزمخشرى، والتفسير الإشارى مثل "لطائف الإشارات" للقشيرى، والتفسير الإصلاحى مثل تفسير "المنار" لرشيد رضا و"فى ظلال القرآن" لسيد قطب ...الخ. ولم ينشأ حتى الآن التفسير الثورى الاجتماعى الذى يصف نشأة المجتمع الإسلامى الأول وتطوره وصراعاته، التفسير إلى يضع النص فى أتون الصراع الاجتماعى والسياسى، ويبين كيف كان الوحى حركة مقاومة فى التاريخ، وإبراز مفاهيم الأرض والمقاومة.

وتمت صياغة السيرة القديمة على نمط حياة يسوع المسيح، ولادته وحياته ومعجزاته وموته بما يثير الانتباه ويستثير الخيال ويدعو إلى الإعجاب والانبهار بعظمة الرسالة وقدر الرسول. صحيح أن المقاومة تحتاج إلى قيادة بل وإلى بطولة

ولكنها تحتاج أيضاً إلى تنظيمات شعبية وقواعد جماهيرية. ومن ثم تحتاج المقاومة إلى إعادة بناء علوم السيرة بحيث يتم التحول فيها من الشخص إلى المبدأ، ومن الرسول إلى الرسالة، ومن البطل إلى البطولة كما فعل كارلايل. فمهما سقط من نشطاء الانتفاضة وزعمائها فالانتفاضة مستمرة بجماهيرها وتنظيماتها وإبداعاتها المستمرة. وغزوات الرسول، وجدل الكم والكيف بين حنين وبدر قادرة على الصمود الفكرى ضد دعوات أنصاف الحلول.

وفى علوم الفقه القديمة مازالت العبادات تتقدم المعاملات نظراً لطبيعة العصر القديم وجدة العبادات وقدم المعاملات. والآن تغير العصر، وأصبحت للمعاملات الأولوية على العبادات، أولوية الجديد على القديم، والمجهول على المعلوم، وفيها إعادة النظر فى عدة موضوعات قديمة بقراءة جديدة مثل الجهاد، والخروج على الحاكم الظالم، والشهادة، وفقه المظالم، وعدم جواز الصلاة فى الدار المغصوبة لعدم جواز اجتماع الحسن والقبح فى فعل واحد، فوجوب تحرر الأرض سابق على وجوب الصلاة فيها، ومعنى دار الإيمان ودار الكفر، ودار الإسلام ودار الحرب، كل ذلك من أجل صياغة ثقافة شعبية فقهية جديدة للمقاومة.

إن المقامة حق مشروع فى كل ثقافة، ودين عندما ينتزع شعب من أرضه، ويخرج من دياره، ﴿أذن للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾. لذلك نقد القرآن الخوالف والقاعدين والمتخلفين والمتثاقلين والمتباطئين والمنافقين المعتذرين بأنه ليس لديهم ما يقاتلون به وغير ذلك من الأعذار. والمقاومة تتبعها شهادة وتدمير ولكن العدو أيضاً يصاب بخسارة، ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

١١- فإذا كانت هناك كل مقومات الثورة وعناصر التمرد فى الثقافة الموروثة فلماذا ارتكنت الثقافة على جوانبها السلبية دون الإيجابية؟ لماذا لم توظف ثقافة المقاومة فى الوطن العربى الذى مازال يئن تحت ضغوط النظم الحاكمة ومحاصراً

بين وجدانه وسياجه، بين وجوده وحدوده، بين تمنياته وإحباطاته؟ إنها مهمة الصامدين فى تحت ثقافة للمقاومة تساند المقاومة الفعلية، فالفكر سند للأرض، والثقافة دعامة للنضال. لا يكفى "التنوير" كحركة فكرية وتيار عقلانى. فالعقل والثورة شئ واحد كما قال ماركوز.

السؤال الآن: من أين يأتى التحرك؟ هل هناك فعاليات جديدة؟ هل هناك جيل ثان من الضباط الأحرار يتكون أثناء العجز الحالى أمام العدو الصهيونى كما تكون الجيل الأول أثناء حرب فلسطين قبل ذلك بنصف قرن؟

هل هناك إمكانية لهبات شعبية تفرض رأيها على نظم الحكم لتدرك أنها محاصرة بين المطرقة والسندان، عدو فى الخارج وثورة فى الداخل، وأن التحالف مع الداخل ضد الخارج أولى وأبقى من التحالف مع الخارج ضد الداخل؟

هل هناك إمكانية ليقظة النظم العربية وإحداث تحول فى الوعى الوطنى والقومى كما حدث لعبد الناصر فى ١٩٥٦ بتأميم قناة السويس، وكما حدث للمهلهل بن أبى ربيعة "اليوم خمر وغدا أمر". وكما حدث لإخناتون على مستوى الدين من التحول من عبادة آمون إلى عبادة آتون؟

ربما تكون المقاومة هو العرض التاريخى، الحدث الذى يفجر طاقات الشعوب وتصحح مسار التاريخ، الضرورة التى تستثير اختيارات الشعوب فتختار بدائل أخرى غير التى فرضتها الإرادات الخارجية وقوى التسلط الداخلى والقهر الخارجى.

هناك مثقفو المقاومة، المفكرون الأحرار الذين يرثون الضباط الأحرار، يحاولون إقالة النهضة العربية الأولى من عزلتها لإرساء قواعد نهضة عربية ثانية لتأسيس ثورة ثقافية تواكب المقاومة وتكون قادرة على مخاطبة الرأى العام الداخلى والخارجى. فمقاومة المحتل، وحق تقرير المصير، جزء من الإعلان العالمى لحقوق الشعوب. والمقاومة الفلسطينية آخر حركة من حركات التحرر الوطنى من الاستعمار الاستيطانى بعد الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والثورة البلشفية والثورة الإسلامية فى إيران.

١٢- إن الصراع بيننا وبين إسرائيل ليس صراعاً عسكرياً فقط، بين شعب محتل وشعب يمارس أبشع أنواع الاستعمار الاستيطانى بل هو صراع صور ذهنية، صورة فى مقابل صورة، قيمة فى مواجهة قيمة، حضارة فى مقابل حضارة. الصهيونى له حق الحياة والاستيطان والتفوق والعلم وليس الإنسان العربى. الموت للعرب، الأفاعى، كما يصف عباديا يوسف. الكيان الصهيونى واحة الديموقراطية فى الوطن العربى وسط نظم تسلطية. وهو الذى يسيطر على وسائل العلم الحديث والتقنية وسط شعوب متخلفة ناقلة للعلم والمدنية.

لقد خلق العدو الصهيونى لنفسه صورة القوة التى لا تقهر، والسلاح المتفوق عدداً، والجندى المقاتل، والتكنولوجيا المتقدمة، والعلم الحديث، واحة الديموقراطية، تعاطف العالم بعد أن حاولت النازية استئصالهم، السيطرة على حكومات العالم ورأس المال الدولى، الانتصارات المستمرة التى لا تتحمل خسارة واحدة. وهى مجموعة من الأساطير الحالية مثل الأساطير القديمة أرض الميعاد والميثاق.

والآن تخلق المقاومة لنفسها صورة أطفال الحجارة الذين يواجهون أعتى جيوش العالم، والنساء والشيوخ الصامدين أمام الجند المدجج بالسلاح، والحركة الاستشهادية من شباب آثر الموت فى سبيل الحرية على الحياة تحت العبودية، والشعب الأعزل الذى يواجه الأسلحة الحديثة للجيش النظامى، والمقاومة بمفردها وسط صمت عربى وتواطؤ دولى. وتنهار نظريات الأمن للكيان الصهيونى. وإن الاستخدام المفرط للقوة دليل ضعف وليس برهان قوة.

إن التاريخ يتغير نوعياً الآن، وينتقل من مرحلة استجداء العون والتمسك بقرارات الشرعية الدولية إلى مرحلة التحرك الفعلى من خلال مقاومة الشعوب فى عصر كاد البشر ينسون تاريخهم النضالى الطويل تحت وهم أن العالم قرية واحدة تحت مظلة العولمة. وثقافة المقاومة هى الضمان الأول لحركة الشعوب.

مصر تتحدث عن نفسها

قـــراءة سياســـة

لا يوجد وطن يخاطب مواطنين كما تخاطب مصر المصريين. ولا يوجد مواطنون يخاطبون وطنهم كما يخاطب المصريون مصر. هذه العلاقة المتبادلة بين مصر والمصريين، وهذا الحوار المستمر بين المصريين ومصر هو الذى أبدع الأدب والفن والسياسة منذ "شكاوى الفلاح الفصيح" فى أدب مصر القديم حتى رسالة قاسم أمين فى باريس "مصر للمصريين"، شعاراً أو صنعة الأفغانى، وهو ليس مصرياً جغرافياً، ولكنه أدرك هذه العلاقة فأصبح مؤسس الحركة الوطنية الحديثة ومؤسس حزبها الوطنى الذى صاغ تلميذه محمد عبده برنامجه السياسى[1].

أن "مصر تتحدث عن نفسها" ليست قصيدة شعر لحافظ إبراهيم ولكنها تعبير عن أحوال مصر المعاصرة وعن وعيها التاريخى بين الماضى والحاضر، عن ذاكرتها خوفاً عليها من الفقد والضياع. وعندما يتحدث الوعى التاريخى فإنما ذلك نهاية لمرحلة وبداية لأخرى كما هو الحال عند أرسطو مؤرخاً لليونان، وابن رشد مؤرخاً للمسلمين، وتونينبى وشتجلر ورسل وهوسرل وبرجسون مؤرخين للوعى الأوروبى الحديث الذى شارف على الانتهاء، وربما تكون العولمة، وثورة المعلومات

(*) مجلة الديموقراطية: السنة الأولى- العدد ١، يناير ٢٠٠١.

(١) قاسم أمين: مصر، وأيضاً كتابنا "جمال الدين الأفغانى"، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨.

وصراع الحضارات ونهاية التاريخ الآخر صيحاته التى كشفت عن بداية النهاية فى التفكيك وما بعد الحداثة، مع بداية وعى جديد فى العالم العربى الإسلامى مركزة مصر وإيران بعد أن عزت المراكز الأخرى التى كان يمكن أن تكوّن قطباً ثانياً فى أمريكا اللاتينية من حلم جيفار القديم ولكنها مشغولة بالفقر والقهر والمخدرات، أو فى أفريقيا بعد تحرر الجنوب ولكن الحروب الأهلية والقبلية والقتل على الهوية والفقر والتصحير والأمراض، أو فى أسيا والنمور الأسيوية، ولكن التلاعب بالأسواق المالية وخرب عملتها وحصارها واعتمادها على أسوال المال العالمية جعلتها تجنى ثمار اختيارها، بمزاياه وعيوبه، الاقتصا قبل السياسة، والصناعة قبل الفكر. لم يبقى إلا العالم العربى والإسلامى القادر بحيويته ونشاطه وتساؤلاته ونهضته ونضاله بالرغم مما يبدو عليه فى الداخل والخارج من نقائص فى الحرية والعدالة فى الداخل والاستقلال والاعتماد على الذات، هو المرشح لإمكانية قيام قطب ثان فى عالم متعدد الأقطاب.

ولا تتحدد السياسة الداخلية أو الخارجية إلا بشخصية الشعوب وليس فقط بأنظمة الحكم وهناك عشر سمات فى مصر والمصريين، هذه العلاقة المتبادلة بين العاشقين يمكن رصدها. وهى أشبه بالوصايا العشر التى يمكن تأسيس أنساق كاملة من الأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والتاريخ عليها. هى مبادئ عامة، دستور غير مكتوب، وعرف شعبى، بل وشريعة الهية جعلت مصر والمصريين باقيين على مدى التاريخ بالرغم من عواصف الدهور وغوائل الزمان.

١- إن من بديهيات الفكر ومسلماته الأولى أن يتحد الشئ مع ذاته قبل أن يتمايز مع الآخر، وهو ما سماه الفلاسفة من قبل الهوية والاختلاف. الهوية أن يكون أ هى أ، والاختلاف أن تكون أ ليست ب. فوجود الأنا سابق على وجود الآخر، معرفياً فى إدراك الذات، "أنا أفكر فأنا إذن موجود"، وهو الكوجيتو الشهير عند ديكارت، ووجودياً "الذات تضع نفسها حين تقاوم" وهى العبارة الشهيرة عند فشتة للتعبير عن مقاومة الألمان لاحتلال نابليون. وهو ما عناه القرآن الكريمة فى آية

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ الأنا واحد، والآخر كثير. ومن ثم فإن علاقة الذات مع نفسها تسبق علاقتها مع الآخر.

وقد ظهر ذلك أيضاً فى تاريخ الفكر السياسى بأولوية البناء الداخلى على العلاقات الخارجية، والبداية بالسياسة الداخلية من أجل تدعيم السياسة الخارجية. هكذا فعلت مصر محمد على، ومصر عبد الناصر، الاستعداد الداخلى قبل المشروع الوطنى، الإعداد داخل الحدود قبل الانطلاق خارج الحدود. هذا الجدل بين الداخل والخارج مستمر عبر التاريخ فى النظم السياسية. فإذا ما أصبح للخارج الأولوية على الداخل حدث رد فعل، هزيمة الخارج والعودة إلى البناء الداخلى، نابليون بعد واترلو، ومصر بعد معركة نوارين، ومصر بعد عبد الناصر. وقد عبر القرآن الكريم أيضاً عن هذه الحقيقة فى آية ﴿وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾، وأيضاً ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم﴾. لذلك أصبح شعار الحركة الإصلاحية البداية بالنفس قبل البداية بالعالم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وأيضا ﴿أتدعون الناس للبر وتنسون أنفسكم﴾ استئناف لقول المسيح الشهير "ماذا تكسب لو كسبت العالم وخسرت نفسك؟".

لذلك أن يبدأ الفكر السياسى برد الاعتبار للسياسة الداخلية والبناء الداخلى بالإضافة إلى السياسة الخارجية والانتشار الخارجى فإن ذلك يمثل تقدماً منهجياً فى الفكر السياسى فى مصر، وأن تتأسس مجلة "قضايا برلمانية" كرصيد "السياسة الدولية" فإن ذلك يكمل جدل الداخل والخارج تجاوز لحساسية الموضوعات الداخلية والأمان السياسى فى الموضوعات الخارجية.

٢- ولا تعنى السياسة الداخلية فحسب تحليل المؤسسات والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والإعلامية والتعليمية وأنساق القيم ومعايير الأخلاق. إنما تعنى التجربة والممارسات الوطنية، الإحساس الداخلى للمواطن، الولاء الوطنى، المصالح العامة التى سماها الطهطاوى المنافع العمومية. يعنى الداخل السياسة فى بدايتها فى التعليم العام وفى الممارسات الطلابية الجامعية وفى حياة

الأحـزاب السياسـية وفـى المشـاركة الشـعبية فـى الانتخابـات للمجـالس المحليـة والتشريعية والرئاسية. السياسة الداخلية تعنى الروح قبل أن يتحول إلى تشريعات، والرؤية قبل أن تصبح قوانين، والتجربة الحية للوطن وللمواطن قبل أ تتحول إلى نظم ولوائح. السياسة الداخلية هى التربة التى ينشأ فيها الزرع والسيقان التى تورق الأوراق والثمار فى السياسى الخارجية.

السياسة الداخلية أقرب إلى الفلسفة السياسية التى تضع المبادئ العامة التى تـنظم علاقـة الحـاكم بـالمحكوم، والسـلطة بالجمـاهير، وتبحـث فـى أسـس العقـد الاجتماعى وأنواعه، فى طبيعة العدل والدرجة المسموح بها فى التفاوت الطبقى، وفى كيفيـة توزيـع الـدخل القـومى على مجموع المواطنين لتحقيـق أكبر قـدر ممكن من المسـاواة والعدالـة الاجتماعيـة، وفـى التعدديـة السياسية وحـق الاختلاف، والتوازن بين الحقوق الواجبات الذى يكفله الدستور. السياسة الداخلية هى الحياة السياسية فى كافة نشاطاتها، حكومة ومعارضة، الجمعية السياسية التى تظهر فى الأدب والفن وفى الأمثال العامية. بل وفى النكات الشعبية.

السياسـة الداخليـة هـى الوعـاء الـذى تنطلق منـه السياسـة الخارجيـة، والتربـة التى فيها تنبت التشريعات والقوانين، الروح قبل البدن، والفكر قبل الواقع، والإمكان قبـل الفعـل، والتأهيـل قبـل المهنـة. إن نشـأة القـوانين ليسـت فقـط من الحـق الطبيعى العقلى الثابت الأبدى الأزلى، ولا من مصالح الطبقات المتغيرة والمتضاربة، ولا من المصالح العامة التى تتجاوز الصراع الطبقى بل من التجارب الوطنية التاريخية الحية التى تكون الرصيد الأول للوعى السياسى والتاريخى للأمة. إنها خبرة السنين الطويلة التى عبر عنها كل شعب بحكمته فى أمثاله العامية وآدابه الشعبية وفى سلوكه اليومى غير المدون، فى التحضر والتمدن وعمران الأرض والبقاء فى التاريخ.

ومن الواضح أن أحد أسباب العثرة فى العقدين الأخيرين فى تاريخ مصر السياسى المعاصر هو الانكفاء على الذات بعد ١٩٧٠ تحولاً من الجمهورية الأولى إلى الجمهورية الثانية، من إعطاء الأولوية للسياسة الخارجية، التحرر العربى، الوحدة

العربية، القومية العربية، دور مصر فى أفريقيا وأسيا، مسئولياتها عن الجزائر واليمن، ونضالهما من أجل الاستقلال، على السياسة الداخلية خاصة على مستوى الحريات العامة والتنظيمات الشعبية والتساهل مع الطبقات الجديدة ورأس المال الطفيلى تحت غطاء الشعارات السياسية والخطاب السياسى الجماهيرى. وأن أحد أسباب شرعية الجمهورية الثالثة هى إعادة بناء البنية التحتية والخدمات العامة التى طالما كان المواطنون يغنون بها مقارنة بالدول الحديثة فى الخليج أو حتى فى ليبيا الشقيق. فإذا كانت الجمهورية الأولى قد أعطت الأولوية للسياسة الخارجية فإن الجمهورية الثالثة قد أعطت الأولوية للسياسة الداخلية فقد كانت حرب أكتوبر آخر الحروب، وأصبح السلام خياراً استراتيجياً بعد أن دخلت مصر أربعة حروب على الحدود وتساندت عدة حروب أخرى ما وراء الحدود.

٣- وأن أهم ما يميز مصر هى الاستمرارية فى التاريخ، والتواصل عبر المراحل. فبالرغم من تولى نظم سياسية عديدة على تاريخ مصر، الفرعونى، واليونانى الرومانى، والقبطى، والإسلامى القديم والغربى الحديث إلا أن هناك عناصر ثابتة فى تاريخ مصر لا تتغير بتغير النظم السياسية. هناك بنية تتحكم فى التاريخ، وخلود وراء الزمان، ومعية وراء التوالى هى التى تتحكم فى النظم السياسية حتى ولو بدت مختلفة بل وحتى متناقضة فى الخارج[1].

هناك نظام مركزى رئاسى، فى قمته السلطة العليا التى تصل إلى حد التقديس والمتجسد فى فرعون حقيقة ومجازاً، منذ أول الفراعنة حتى آخر الفراعنة. قد يكون ذلك مطلباً تاريخياً لتوزيع مياه النيل، وتنظيم الدورة الزراعية، وجبى الضرائب، وتجنيد الجند، وبناء الأهرام، والدفاع عن البلاد. وبلا سلطة مركزية يتفتت الوطن كما كان الحال فى العصر المملوكى. إذا كانت سلطة شعبية ترعى مصالح الناس التفوا حولها، وإن لم تكن كذلك أداروا لها الظهور دون الثورة عليها، تجاهلوها وأسقطوها من الحسبان. لذلك انتسب مصر للدولة الفاطمية، وللعقائد

---

(١) المعية Synchronism، التوالى Diachronism.

الشيعية، وظهور الإمام والمهدى المنتظر. وظهر عند المصلحين نموذج "المستبد العادل" والذى عُرف فى الفكر السياسى الغربى باسم "الاستبداد الشرقى" عند هيجل ومونتسكيو. وربما عبر القرآن الكريم عن ذلك بقول فرعون ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وأيضاً ﴿أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾.

لذلك نشأ الخلاف فى الحركة الإصلاحية الحديثة حول نموذج الإصلاح، "الاستبداد الشرقى" أو "الفرعونية"، فى مقابل "الديمقراطية" الغربية، تعدد الأحزاب، البرلمان، الدستور، الأغلبية والأقلية، المسؤولية أمام الشعب، أو "المستبد العادل" الذى فيه يستمر التاريخ، السلطة المركزية للصالح العام، أحمس وصلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر[1].

ومازال الموضوع مطروحاً فى الفكر السياسى المعاصر عن الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية فى الوجدان العربى المعاصر. ومازال السؤال مطروحاً فى علم الاجتماع السياسى: من أين نبدأ ؟ من تغيير الثقافة السياسية التى مازالت ترى "أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" تبدأ من السلطة، فالله ينظر هذا الدين بالرجل الفاجر، أم تبدأ من الناس، وحركة الجماهير، ومراجعة الحكام. فالإمامة عقد وبيع واختيار، وليست نظاماً ملكياً وراثياً كالنظام البيزنطى، وليست نظاماً عسكرياً انقلابياً، أخذ السلطة بالشوكة كما شرع الغزالى كالنظم العسكرية الانقلابية المعاصرة سواء تلك التى تحولت إلى ثورة اجتماعية أو تلك التى بقت بعقلية الانقلاب العسكرى.

لا فرق بين النظم السياسية فى "وحدانية التسلط" بتعبير ابن رشد. بل أن النظم الليبرالية نفسها لا تستطيع أن تقرر شيئاً ألا بأمر "الباشا"، والصراع على أشده بين من يريد خلافته ووراثته دون احتكام بقواعد الحزب الليبرالية. كما أن النظام الاشتراكى الديمقراطى نفسه لا يقوم إلا على الزعامات التاريخية والقيادات

---

(١) انظر دراستنا بهذا العنوان فى: الدين والثورة فى مصر، ١٩٥٢-١٩٨١، جـ٢، والدين والتحرر الثقافى، مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩، ص ص٩٩-١١٨.

النشطة والمؤثرة التى منها تخرج التوجيهات لقواعد الحزب باسم الديمقراطية الموجهة أو المباشرة فى اللجان الشعبية. والنظم القومية لها قياداتها التاريخية، وآلهتها ومفكروها ولا يستطيع أحد أن يخرج على الأيديولوجيا وإلا كان تحريفياً مراجعاً، خرج على النص، وانحرف عن التيار. وهو نفس الموقف فى النظم الماركسية والإسلامية التى تمتلك قياداتها الحقيقة المطلقة والإمارة الشرعية والتى تتحدث باسم الشعب والتاريخ أو الحاكمية وتطبيق الشريعة الإسلامية. على الرغم من اختلاف النظم السياسية إلا أن بنيتها التسلطية واحدة. وتلك مأساة الأحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة[1].

٤- ومصر بوضعها الجغرافى السياسى مركز لدوائر ثلاث، كما حدد عبد الناصر فى "فلسفة الثورة"، وكما عبر عن ذلك مالك بن نبى فى "فكرة الأسيوية الأفريقية". وهى تصور لا خلاف عليه بين الإخوان، مصر والعروبة والاسلام، وبين الضبط الأحرار والثورة المصرية فى ١٩٥٢. فمصر مركز لها محيطان. المحيط العربى، والمحيط الأفريقى والأسيوى، لذلك انشأت مصر "منظمة تضامن شعوب أفريقيا وأسيا"، وساهمت فى انتشار "المؤتمر الإسلامى" الذى يضم كل الدول الإسلامية. ولا تناقض بين هذه الدوائر الثلاث.

فمصر هى الوطن الذى ارتبط به المصريون منذ أقدم العصور. وهى من أقدم الحضارات البشرية. فسيناء هى المدخل الشرقى لمصر كما لاحظ حامد عمار وجمال حمدان من قبل. تأتيها الغزوات من الشمال الشرقى، العرب. وتتبادل ثقافياً وتجارياً مع الشمال، اليونان والرومان، ومع الجنوب، السودان والحبشة "بلاد بنط". كليوباترا من الشمال فى الإسكندرية، وحتشبسوت من الجنوب فى أسيوط، وحمامات فرعون فى سيناء، والإله آمون فى الغرب فى واحة سيوة.

عزلها عن محيطيها مقتل لها، وتهميشها قضاء على دورها. وقد كان هذا هو هدف الاستعمار منذ هزيمة محمد على وتحديد جيش مصر ثم ثورة عرابى وهزيمة

---

(١) انظر دراستنا بهذا العنوان فى: الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١)، جـ٨، اليسار الإسلامى والوحدة الوطنية، مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩، ص ص١٨٩-٢١٤.

العرابيين وتكرار نفس المطلب، ثم عدوان ١٩٥٦ عقاباً لها على مساندة الجزائر ومعاداة الغرب ورغبتها فى توحيد العرب. وربما كان الهدف أخيراً من معاهدات السلام هو استبدال إسرائيل بمصر كأداة للتحديث وفقدان مصر دورها التقليدى لغيرها مما بقضى على دور القلب بالنسبة لضخ الدم فى الأعضاء.

أن قوة مصر بمدى تحمل مسؤولياتها فى الدوائر الثلاث، وقوة الدوائر الثلاث بمدى انجذابها حول مركزها فى مصر وإلا اتجهت إلى الغرب كما هو الحال فى الخليج أو إلى الشرق كما هو الحال فى مجموع الدول الإسلامية فى أسيا. أن دور مصر فى محيطها العربى الإسلامى مثل دور ألمانيا فى أوربا، ودور أمريكا عبر الأطلنطى، ميزان ثقل فى المنطقة. لذلك كانت سياستها باستمرار، الحياد الإيجابى، وعدم الانحياز، ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ كما عبر القرآن الكريم.

٥- تجتمع مصر الوطنية والعروبة والإسلام كثقافات متداخلة، حب الوطن، واللسان العربى، والثقافة الإسلامية. وهى السمة الغالبة على الشمال الأفريقى كله، الجناح الغربى للوطن العربى. فالعربى هو المسلم، والإسلام هو ثقافة الوطنى وهوية الشعوب. لذلك انتشرت دعوة الأفغانى فى مصر والمغرب العربى لتوحيده بين الوطنية والعروبة والإسلام. وكان من تلاميذه علماء علال الفاسى مؤسس حزب الاستقلال. ولم يغب هذا التيار عن الشام فى شخص "شكيب أرسلان". واستمر هذا التيار فى مصر والشام عند محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب فى مرحلته الاجتماعية. ومن الحركات الإصلاحية الحديثة خرجت معظم حركات التحرر الوطنى فى مصر وتونس وليبيا والجزائر والمغرب واليمن والعراق، وسوريا ولبنان والسودان. ولم يشذ عن ذلك إلا أصحاب مصر الفرعونية أو مصر القبطية وهو تيار هامشى غير مؤثر فى مجموع الشعب المصرى.

لم يحدث تساؤل حول القومية والإسلام إلا فى الشام لقربه من تركيا وكرد فعل على القومية الطورانية. وخرجت حركة القوميين العرب على نفس نمط تركيا الفتاة، وحزب الاتحاد والترقى، مما سبب خلافاً فى الرأى والاتجاه السياسى بين الحركتين الإسلامية والقومية، وقبل أن تعقد سلسلة الحوارات بينهما بعد هزيمة

١٩٦٧. فالقومية ظاهرة شامية، والإسلام الوطنى ظاهرة مصرية. وانتشرت الظاهرة الشامية فى العراق وفى الخليج، بينما انتشرت الظاهرة المصرية فى المغرب العربى والسودان وموريتانيا واليمن وشبه الجزيرة العربية. ولقد قامت مصر بدورها فى تدعيم حركات التحرر الوطنى فى المغرب العربى، تونس والجزائر والمغرب وفى اليمن. كما حملت لواء تعليم اللغة العربية وتعريب الجزائر. كما تخرج منها معظم الحركات الإصلاحية وروافدها فى الوطن العربى منذ الأفغانى حتى حسن البنا[1]. ومن أجل الشام جمع الكواكبى بين العروبة والإسلام، وجعل ميشيل عفلق الإسلام ثقافة العرب، والعروبة جسد الإسلام وحامله "إن كان محمد كل العرب فإن كل العرب محمد".

وثارت مشكلة فى الأيديولوجيات السياسية المعاصرة حول دور الدين فى نشأة القومية. فبينما يرى القوميون الحرفيون أن القومية لها وجودها المستقبل ومقوماتها الذاتية خارج الدين وكما هو الحال فى "الكتاب الأخضر" يرى آخرون أن الدين هو الدعامة الأولى للقومية مثل الصهيونية، والسيخ. نشأ تياران فى فهم القومية الأول يجعلها علمانية حرفة، والثانى يجعلها مرتبطة بالدين. كما نشأت فى الفكر الماركسى بين نزعتين، أممية تنكر القومية "يا عمال العالم اتحدوا" وماركسية قومية ترتبط بالذات القومى للشعوب كما هو الحال فى الماركسية السلافية أو الإيطالية أو الفرنسية أو الاشتراكيات فى العالم الثالث، أفريقية أو أسيوية أو عربية.

٦- وتتميز مصر بوحدة الشخصية عبر التاريخ، وحدة السكان والدين والمجتمع والعادات والتقاليد والسلوك الوطنى. ربما ساعدت جغرافيتها، واديها وصحرائها، على هذا الاتساع فى الفضاء الجغرافى، والرحابة والسماحة والتواصل

---

(١) انظر دراستنا: "الإسلام للوطن، قراءة مصرية لعلال الفاسى"، "مفهوم الحرية عند علال الفاسى"، "نقد النقد الذاتى، قراءة مصرية لعلال الفاسى فى ذكراه العشرين"، هموم الفكر والوطن، جـ٢، الفكر العربى المعاصر، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨، ص ص٢٧١-٣٠٠. وأيضاً "العروبة والإسلام فى فكر ميشيل عفلق"، السابق، ص ص٣٠١-٣٣٤. وأيضاً كتابنا، جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (١٨٩٧-١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨.

فى السلوك الوطنى. تجمع فى ألوان البشرة السواد والسمار والبياض ودون أن يكون عاملاً فى التمايز الاجتماعى. يجتمع الأغنياء والفقراء فى إطار التكامل الاجتماعى والترابط الأسرى والإقليمى. ولا يجوز لأخ أن يخاصم أخيه أكثر من ثلاث ليال، وغيرهما من بدأ بالسلام. وكان الإيمان بالدين، والوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى ركائز ثلاث للقومية العربية.

وبالرغم من تولى عدة ديانات عليها إلا أن جوهرها واحد، التوحيد الذى يعبر عن وحدة الأرض والشعب والرؤية والسلطة والولاء والقدر والمصير. لا فرق بين اخناتون وموس وعيسى ومحمد عقائدها واحدة: وجود الله، وخلف العالم، وخلود النفس بعد الجزاء ثواباً أم عقاباً. والدين فيها هو كل شىء، مصدر الحضارة والعلم والفن والثقافة والحضارة والتاريخ. هذا التجانس فى الشخصية المصرية هو الذى جعل شعب مصر قائماً وصامداً فى التاريخ أمام نزعات الانفصال بين الشمال والجنوب أو الخلاف المفتعل بين المسلمين والأقباط[1].

لذلك كان من أهم الأخطار التى تهدد مصر هو تفتيت الوطن، وفك العروة الوثقى باسم الطائفية، مسلمين وأقباط، وباسم الماركسية أغنياء وفقراء، ياقات بيضاء وياقات زرقاء، أصحاب رؤوس الأموال والعمال، إقطاعيون وفلاحون، وباسم القومية، قوميون وقطريون، وحدويون وانفصاليون، وباسم التاريخ، تقدميون ورجعيون، ليبراليون ومحافظون. لا يعنى ذلك إلغاء الصراع الاجتماعى والسياسى وجدل التاريخ بل يعنى فقط أن يتم ذلك فى إطار الوحدة الوطنية والحوار السلمى، ومقارعة الرأى بالرأى، والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان.

إن أخطر ما يهدد مصر والأمة العربية والإسلامية اليوم هو هذا الصراع العلنى أو الضمنى بين جناحى الأمة الرئيسيين، الحركة الإسلامية والحركة التقدمية. الأولى تكفر الثانية، والثانية تخوّن الأولى. صراع دموى فى الجزائر وصل إلى مائة

---

(١) ومعظم دراسات حسين فوزى، وجمال حمدان، وأنور عبد الملك، ونعمات أحمد فؤاد، وميلاد حنا تصب فى هذا التيار.

ألف شهيد، يصفى كل جناح الآخر حتى يقضى عليه. فإذا نجح أحد التيارين لا يجد أحد يحكمه بعض أن ضحى الفريقان بالشعب ذاته، النساء والأطفال والشيوخ. وهو صراع مكبوت فى المغرب وتونس وليبيا ومصر وسوريا والعراق والسودان. قد ينفجر فى أية لحظة إن لم تنشأ محاولات للحوار الوطنى من أجل الوحدة الوطنية. إذا قويت الدولة انضم الجناحان إليها. فالقلب فى حاجة إلى رئتين. وإذا حققت الدولة ضربت أحد الجناحين بالآخر على التبادل، اليمين باليسار مرة إذا كان الخطر من اليسار، واليسار باليمين مرة إذا كان الخطر من اليمين. فيضعف الجناحان الوريثان للدولة الرخوة فى الداخل التابعة فى الخارج.

٧- ويرتبط المصرى بأرضه ويحن إليها، إذا ما هاجر تحت ضغط الظروف الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية. ولم تصبح الهجرة ظاهرة فى مصر إلا بعد ثورة ١٩٥٢ ثم عظمت أثناء الجمهورية الثانية بعد ١٩٧٠ وحتى الآن سواء داخل المنطقة العربية فى الخليج شرقاً أو فى ليبيا غربا طبقاً لسوق العمالة أو فى أصقاع بعيدة مثل كندا واستراليا حتى تربى عند جيل جديد من الشباب إحساس أن الأزمة فى الداخل والحل فى الخارج، الضيق فى الوطن والانفراج خارج الحدود.

والأغانى الشعبية والمواويل والأمثال العامية مملوءة بالحزن والحسرة الآلام على مغادرة الوطن ولوعة الفراق ومنذ الأدب العربى القديم والبكاء على الأطلال وفراق الحبيب أصبح عنصراً ثابتاً فى الوجدان العربى. والناى هو خير معبر عن هذا الحزن مثل لحن "الصبا" فى الموسيقى العربية. وأطربت كوكب الشرق جماهيرها بألحان الهجر والفراق والحنين إلى العودة والونام.

والهجرات العربية الأولى لبلاد المهجر أو أفريقيا فى الساحل الغربى أتت من الشام وليست من مصر. والجاليات اللبنانية والسورية أصبحت بعد قرنين من الزمان جزءاً من نسيج المجتمع الأمريكى اللاتينى أو الأفريقى كما هو واضح فى "أدب المهجر" بكل رومانسية العودة إلى الأرحام والوطن الأم والغربة فى الوطن الجديد مع مقابلة الماضى بالحاضر، الأنا بالآخر، الهوية بالاختلاف.

وفى الشريعة، أصبح التغريب أداة للعقاب أى البعد عن الأهل والوطن. وتكاثرت الأحاديث والأقوال المأثورة عن حب الأوطان كما عبر الطهطاوى فى أول "مناهج الباب" وكما تعلم المصريون وهم صغار حديث "حب الوطن من الإيمان" من القواعد العامة للآداب والأخلاق العامة. وقول عمر بن الخطاب "عمر الله البلاد بحب الأوطان"، وقول على بن أبى طالب "سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده". وقد كتب التوحيدى رسالة "الحنين إلى الأوطان". وأصبح "الإخراج من الديار" فى الشريعة أحد أسباب الجهاد. وأن لمصر فى الشريعة الإسلامية مكانة خاصة فجندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة. أوصى الرسول بقبطها خيراً فإن لهم فيها ذمة ورحما. ويروى أن الرسول قال بعد موت إبراهيم وحزنه عليه "والله لو عشت يا إبراهيم لرفعت الجزية عن كل قبطى"[1].

والآن تمثل الهجرة خطورة على الوطن يضعف الولاء له، والإحساس بالسعادة فى البعد عنه والعمل خارجه. وبناء كل شئ إلا فيه. والحضور إليه سانحاً بجواز سفر أجنبى أو على الأقل بجنسية مزدوجة. الوطن للفرجة وللسخرية والتندر أو للمقارنة الظالمة أو للتعالى عليه وربما العداء له والعمل ضده. ويشهد بذلك طوابير المصريين على أبواب السفارات الأجنبية طالبين تأشيرات دخول لبلاد النفط أو لبلاد الوفرة.

ومنذ عشرات السنين بدأت مؤتمرات المغتربين للمصريين العاملين فى الخارج لربط المواطنين بوطنهم وتجديد الولاء الذى ضعف على مر السنين حماية لذرية جديدة أخذت الجنسية الأمريكية أو غيرها وتتلعثم بالعربية وفقدت الهوية أو كادت. وتعقد المؤتمرات وتنفض، وتنفق عليها الأموال وتصبح موضوعاً مثيراً للإعلام. وينشر عن المشاريع المالية الاستثمارية الضخم وتحويل مدخرات المصريين فى الخارج داخل الوطن. ولكنها تأتى من عمال الخليج وليس من النخبة فى العالم الجديد. وتوضع الخبرات العلمية للمصريين فى الخارج لتشارك فى

(١) الطهطاوى: مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، مطبعة الرغائب، القاهرة، ١٩١٢، ص١٠-٢٣.

الخبرات العلمية فى الداخل، ولكن الخارج والداخل لا يلتقيان، بسبب أهواء البشر، الحسد، والغيرة، والمنافسة. ولا يأتى المصرة الأجنبى إلا أياماً معدودة لإجراء فحص طبى أو عملية جراحية أو الإشراف على مؤسسة علمية باعتباره خبيراً يساعد من لا خبرة لهم.

وبالتالى يكون التحدى فى السياسة الداخلية الآن كيف يمكن إعادة روح طلعت حرب لمصر والمصريين وتأسيس البنوك الوطنية، والشركات الوطنية؟ كيف يمكن إعادة موجة ثانية من التمصير للشركات الأجنبية؟ ما هو مشروع القرش الجديد؟ وهل الشعار القديم "صنع فى مصر" صعب المنال؟

٨- حب الأوطان سمة مميزة للمصريين يتعلمها التلاميذ فى درس مشهور لجيل قديم كان يسمى "التربية الوطنية" قبل أن يصبح "المقرر القومى" بعد ثورة ١٩٥٢ وبعد أن يختفى كلية من الحياة العامة والخاصة. ومنذ الثورة العرابية فى ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ ثم اشتداد الحركة الوطنية فى الأربعينيات ثم قيام الثورة المصرية فى ١٩٥٢ بدأ احتكار العمل الوطنى وتحقيق برامجه الاجتماعية حتى استأثرت الدولة به. ثم عادت على استحياء من جديد فى مظاهرات مارس ١٩٦٨ ومظاهرات الطلبة ١٩٧١، والانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، وانتفاضة الأمن المركزى فى ١٩٨٦، والمظاهرات الطلابية لم تتوقف ضد العدوان الأمريكى على العراق فى يناير ١٩٩١ وضد الاعتداء الإسرائيلى على مركز المقاومة فى تونس، والمفاعل النووى فى العراق، وجنوب لبنان، وحرق منبر المسجد الأقصى، وبناء المستوطنات.

انحسر المد الوطنى شيئاً فشيئاً من حركة شارع إلى حركة حرم جامعى، ومن انتفاضة شعبية إلى مظاهرة طلابية. وأصبح الوطن فى حاجة إلى صياغة جديدة لمبادئ التحرك الوطنى استئنافاً وتطوير للأربعينيات، الاستقلال الوطنى، ووحدة وادى النيل. ويبدو أن حركة وطنية جديدة تتبلور منذ أوائل الجمهورية الثانية وخلال الثالثة تتركز على الجبهتين الداخلية والخارجية فى آن واحد: الحرية

والديمقراطية والتعددية السياسية وحقوق الإنسان وتقوية مؤسسات المجتمع المدنى والعدالة الاجتماعية فى الداخل، والاستقلال الوطنى، والاعتماد على الذات، ومقاومة التطبيع، والصمود فى وجه العولمة واقتصاد السوق واتفاقية الجات. صحيح أن البطالة وأزمة الإسكان والعرف الصحى والحياة النقية والنظافة والمواصلات والخدمات العامة مازالت مطروحة على الداخل، ولكنها لا يمكن أن تكوّن رؤية سياسية واعية كتمهيد لرؤية سياسية خارجية أكثر استقلال، وكأن إشباع الحاجات يتم خارج الرؤية السياسية العامة لتفاعل الداخل والخارج.

أن المسموح به الآن هو الحديث فى الوطن، والمعارضة السياسية والاعتراض على السياسات العامة على مستوى الخطاب السياسى، وليس على مستوى العمل السياسى. فالحاكم يقول "تكلم كما نشاء، وافعل كما أريد". فمن الأفضل أن يكون الكلام صمام الأمان حتى لا يغلى القدر لدرجة الانفجار. والقضية الآن إلى متى؟ إلى متى ينحسر الوطن فى قلوب المصريين، وينحسر المصريون عن وطنهم؟ أم أن مصر مخصبة فى العقدين الأخيرين؟ وتحن إلى الستينات، ويعز عليها الحلم المجهض؟

٩-أن مصر فى التاريخ لها منزلة خاصة أدركها العلماء وكل من نزل بها مقاماً. فهى أم الدنيا كما سماها ابن خلدون. وهى مصر المحمية ومصر المحروسة فى العصر العثمانى عندما بدأ الاستعمار يطمع فى ممتلكات الرجل المريض. يرعاها الله، ويحميها من غوائل الزمان. وهى مذكورة فى القرآن خمس مرات.

مصر بلد الاستقرار والسكن، ومكان العيش والحياة. يأتيها الناس ولا تذهب إليهم، الهجرة إليها وليست منها، ويتخذونها قبلة ومقراً ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قبلة﴾. يسكنها الأنبياء وذووهم، وتخرج منها القادة العظام، وتعيش فيها القبائل، وتعجزها الشعوب. صحراء تحتاج إلى تعمير، وأرض تستدعى البناء من أهلها. إن تركها أهلها بلا تعمير استعمرها غيرها، واستوطن فيها بنى فيها البيوت، وأقام المستوطنات، وأنشأ المزارع

الجماعية، وشيد المعسكرات لن أهلها لم يستقروا فيها، ولم يبنوا فيها، ولم يحولوها إلى كتل بشرية تحمى صدورها، وتمنع غزوها، وتصد العدوان عنها.

ومصر بلد الأمان. فلا حياة دون أمان، ولا استقرار دون أمن ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾. كان يوسف فى مصر آمناً، ودخل أبواه مصر آمنين. ولا يعنى الأمن فى مصر إنشاء أجهزة الأمن للقضاء على أمن المواطنين بل أن يشعر أنه يعيش فى بلد آمن، آمن على نفسه، وآمن على أهله، آمن على عمله ومستقبله، آمن على قوله وفعله، آمن على فكره ورأيه. فالأمن ليس فقط هو الأمن الغذائى بل الأمن الفكرى والأمن السياسى.

ومصر بلد الكرم والسخاء، يجد فيها الغريب موطناً له ومستقراً، مواطناً لشعبها، ابناً لأسرها ﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾. ليست مصر إذن بلد الدخلاء عليها الذين يأتون لنهب ثرواتها والاستيلاء على أرضها وخيراتها، وتهريب أموالها، واستهلاك دخلها، والاستحواذ على مدخراتها. لا يعنى الكرم بيع ماء النيل، ورهن قناة السويس، وإهداء قطعة من الساحل الشمالى. فالعطية من نتاج مصر وعرق مصر وليس من أرض مصر وثروات مصر وأصول مصر.

ومصر بلد الزرع والنماء، ومصدر الخير والرخاء. لما ضاق إسرائيل العيش، وملوا الطعام الواحد سألوا موسى البقول والقثاء والفول والعدل والبصل فقال موسى ﴿اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم﴾. فمازالت مصر بوفرة محصولها مطمع من تضيق بهم الأرض، ومن تعز لديهم مصادر المياه. مصر هى ريفها وقراها، وشعبها هم فلاحوها ومزارعوها. فكيف يعلمها "المهاجر" الآتى من الشمال الزراعة؟ وكيف تطلب مصر معونة الأعداء وعونهم لتوسيع الرقعة الزراعية؟ وكيف تعتمد مصر على ٧٠٪ من غذائها من الخارج، تأكل مما لا تنتج يداها؟[1].

---

(١) "مصر بين الأمان والطغيان" فى "الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١)،" جـ٧، اليمين واليسار فى الفكر الدينى، مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩، ص ص١٦٨-١٧٠.

١٠- أن الصبر فى مصر مشهود. تزخر به الأمثال العامية، وهو من مقامات الصوفية التى ازدهرت طرقها فى العصر العثمانى. وهو من القيم الدينية الموروثة والتى تجد أصولها فى القرآن والسنة على نحو إيجابى، جمعاً بين الصبر والمصابرة، بين الصبر والاستعداد لأن الإنسان لا يستطيع أن يصبر على النار دون أن يصرخ من الاحتراق ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قبل أن يستقر على معناها السلبى فى الثقافة الشعبية. ولكن الانتفاضات الشعبية فى مصر مشهورة أيضاً للفلاحين والعمال والطلبة والجنود الوطنيين. فمصر فى جدل دائم بين القبول والرفض، الطاعة والعصيان، الرضا وعدم الرضى، السلام والجهاد.

تاريخها المعاصر مصداق لهاتين الموجتين، الارتفاع ثم الانخفاض. فمنذ فجر النهضة العربية فى القرن الماضى ومصر تقود نهضة العرب مع الحالية فيها من بر الشام ومن ساحل المغرب. وانتهت هذه النهضة بالاحتلال البريطانى لمصر بعد هزيمة العرابيين. ثم نهضت مرة أخرى بعد ثورة ١٩١٩ واستمرت فى نضالها الوطنى من أجل الدستور والجلاء التام ووحدة وادى النيل حتى اقتطف الضباط الأحرار الثمرة وقامت ثورة ١٩٥٢ تتويجاً لهذا النضال وتحقيقاً لمطالبه. وبلغت ذورة الثورة المصرية فى تأميم القناة فى ١٩٥٦ والتمصير فى ١٩٥٧ والوحدة مع سوريا ١٩٥٨-١٩٦١، وقوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦٢-١٩٦٣، ومقاومة الحلف الإسلامى فى ١٩٦٥. ثم جاء هزيمة يونيو ١٩٦٧ كى تجهض حلم الستينات. ثم قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ترد إلى الوطن كرامته ثم انهارت إرادة المقاومة وتم الصلح مع العدو قبل إزالة آثار العدوان واسترداد حقوق شعب فلسطين. فانهزمت إرادة الصمود وعدم التفريط فى الحقوق التاريخية للشعوب. وربما تعلمت مصر الآن، وهى تحاول العودة إلى موجة جديدة من النهضة فى الداخل، إعادة بناء البنية التحتية، وفى الخارج، إعادة قيام مصر بدورها التقليدى كمركز فى محيطها العربى الإسلامى. فربما الصعود قادم، والموجة آتية والمد وشيك بعد أن طال السقوط والموجة الهابطة والجزر والانحسار.

إن مصر جزء من حركة التاريخ ومساره، تاريخها الخاص ومسارها الذاتى. ودون الاتحادية فإنها قد تسير فى مسار خططه له غيرها. إن مهمة السياسة الداخلية هى رؤية مصر لذاتها أولاً ولمسارها التاريخى وإمكانياتها ومحيطها ترتيباً للبيت من الداخل قبل الانطلاق إلى الخارج. وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة روح مصر فى التاريخ. وأن صياغة سياسة مصر الداخلية لا تتم إلا عن طريق حساب إمكانيات مصر ومعرفة السمات الرئيسية فى الشخصية المصرية التى حاول إدراك المؤرخون والجغرافيون والسياسيون والمفكرون والأدباء والشعراء والبسطاء الذين يعبرون عن حكمة الشعوب فى الأمثال العامية والنكات الشعبية.

إن علم السياسية لا يعنى بالضرورة النظريات السياسية والجداول الإحصائية والتحليلات الكمية والتواريخ للحوادث والمعاهدات والمواثيق والقوانين والقرارات. هناك السياسة الشعبية، الإحساس بالسياسة عند المواطنين والتعبير عنها بلغة البسطاء. وكثيراً ما كان كبار القادة والقواد العظام من الفلاحين البسطاء قبل أن ينظر علم السياسة حركاتهم السياسية وممارساتهم التاريخية.

عندما تتحدث مصر عن نفسها فإن ذلك لا يعنى شعر السياسة وأدبها، وهو السهل الممتنع الذى يعز على علماء السياسة وأدبائها بل يعنى تحويل السياسة إلى تجربة معاشة للأفراد والجماعات يمكنه وصفها وعلى أساسها يمكن تأسيس القرار السياسى والنظريات السياسية. حينئذ يصبح علم السياسة ليس علماً مجرداً منقولاً عاماً، ينطبق على كل التجمعات السياسية، نموذجاً رياضياً قادراً على تفسير كل الظواهر السياسية بل علما خاصا يغوص فى الحركية السياسية لمجتمع معاش، لا فرق فيه بين العالم والمواطن، والمنظر والممارس. ولحظة صدق فى الخطاب السياسى قد تكون أبقى من نسق علمى مهنى بأكمله.

الثقافة السياسية للخارجية المصرية

أولا: الموضوع والمنهج.

"الثقافة السياسية" موضوع بين الفلسفة والسياسة. يدرسه الفلاسفة باعتباره أحد جوانب الفكر السياسى أو الفلسفة السياسية أو الأيديولوجيا. وهو ما سماه أحد المفكرين العرب المعاصرين "نقد العقل السياسى".

"والخارجية المصرية" موضوع فى العلوم السياسية البحتة فى النظم السياسية أو "الحكم" Government. لا يدرسه إلا المتخصصون فيه على ما هو متعارف عليه فى هذا الميدان.

أما "الثقافة السياسية للخارجية المصرية" أو "ثقافة السياسة الخارجية المصرية" فهو موضوع بينى بين العلوم الفلسفية والعلوم السياسية يتناوله المتخصصون فى العلمين. إذا تناوله الفيلسوف يكون المدخل إليه الثقافة السياسية كأساس والخارجية المصرية كفرع. وإذا تناوله عالم السياسة فإن المدخل إليه يكون النظم السياسية كأساس والثقافة السياسية كفرع.

(*) ندوة المؤتمر السنوى الرابع عشر للبحوث السياسية "المدرسة المصرية فى السياسة الخارجية" ١٣-١٥ يناير٢٠٠١، مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة.

وتصعب التفرقة بين الثقافة السياسية للخارجية المصرية والسياسة الخارجية التى هى تعبير عنها. فالثقافة سياسة، والسياسة ثقافة[1]. الثقافة سياسة المجتمع، والسياسة ثقافة النخبة. كما تصعب التفرقة بين الثقافة السياسية والأيديولوجيات السياسية. فالثقافة السياسية أيديولوجيا قبل التنظير، والأيديولوجيا ثقافة سياسية محكمة فى نسق فكرى.

لا تعنى الثقافة السياسية مجرد مجموعة من الآراء والنظريات والرؤى والمواقف الفكرية بل هى مجموعة من الاختيارات السياسية تعبر عن قوى سياسية فى المجتمع. والثقافة السياسية أداة من أدوات الصراع الاجتماعى.

ولا تعنى "الثقافة السياسية للخارجية المصرية" أنها للخارجية المصرية وحدها بل هى الثقافة السياسية المصرية السائدة في الخارجية والثقافة والتعليم العالى والإعلام بل وفى وزارات الأوقاف والشئون الدينية نظراً للارتباط بين الدين والسياسة والثقافة.

وكما يصعب التمييز بين الثقافة السياسية والاختيارات السياسية فإنه يصعب أيضاً التمييز بين الخارجية المصرية وتاريخ مصر السياسى فهى المؤشر عليه والمعبر عنه والمصيغة له.

والخلاصة أن "الثقافة السياسية للخارجية المصرية" موضوع مشترك بين الفلسفة والسياسة والاجتماع والتاريخ[2].

ونظراً لصعوبة تحديد مستوى التحليل للثقافة السياسية للخارجية المصرية تتعدد مادة التحليل حتى لا يصبح البحث العلمى مجرد انطباعات فردية وتأملات عامة وأحكام شائعة وذكريات خاصة عند المشتغلين بالثقافة السياسية أو بالخارجية المصرية. وكلها روافد تؤدى إلى استكشاف الموضوع من مداخل متعددة. وأهمها:

---

(١) د. جهاد عودة: نظام السياسات الخارجية المصرية، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ٢٠٠٠ ص

(٢) د. عزمى خليفة: الثقافة السياسية والدبلوماسية المصرية، الثقافة السياسية فى مصر بين الاستمرار والتغير، أعمال المؤتمر السنوى السابع للبحوث السياسية، القاهرة ٤-٧ ديسمبر ١٩٩٣ القاهرة ١٩٩٤، الجزء الثانى ص ١٥٤٣-١٥٨٨.

١- خطب وزراء الخارجية وتصريحاتهم وبياناتهم وأقوالهم التى تكشف عن المواقف السياسية التى تدل بدورها على الاختيارات السياسية والتى تقوم بدورها على ثقافة سياسية أو رؤى للعالم. ويمكن لتحليل المضمون أن يعطى نتائج كمية إحصائية مع قراءة كيفية متعمقة للكشف عن مكونات الثقافة السياسية لوزراء الخارجية. ميزتها "موضوعية" المادة وعيبها أنها قد تكشف عن السياسات أكثر مما تكشف عن الثقافة السياسية إلا بتأويل وقراءة قد تبتعد عن الموضوعية وتخضع لآليات التأويل الفردية[١].

٢- مذكرات وزراء الخارجية التى ينشرونها بعد تركهم الوزارة والتى تكشف عن عدة أحقاب من تاريخ مصر، وكيفية صنع القرار خاصة فى حالات التوتر الداخلى أو الصراع الخارجى. ميزتها أنها شهادات حية ووثائق مباشرة تكشف عن علاقة وزارة الخارجية بباقى دوائر صنع القرار السياسى. وعيبها صعوبة الجمع بين الحدث الموضوعى والرؤية الذاتية. وقد يصبح الحدث الموضوعى مجرد رصد لوقائع دون دلالات (صليب سامى)، مجرد ذكريات وحوادث بلا نسق أو هدف أو تحليل. وقد تكون أقرب إلى الرؤى الذاتية الخالصة (إسماعيل فهمى، محمد إبراهيم كامل) تعبر عن موقف سياسى مخالف. وقد تستطيع الجمع بين الاثنين فى معادلة صعبة وتوازن دقيق (محمود رياض). وقد يبقى البعض منها طانراً فوق الأحداث، تصفها من الخارج دون الالتزام بموقف صريح إلا بسياسة الدولة وموقف الحكومة بالرغم بما فيه من ذكريات وتجارب وطنية قبل يوليو ١٩٥٢ وبعدها (عصمت عبد المجيد) جمعاً بين المنهج الفلسفى والمنهج التاريخى. تكشف عن المدرسة الوطنية فى الأربعينات، مدرسة محمد صلاح الدين ومحمود فوزى. تغيب

---

(١) للأسف لم ينتبه وزراء الخارجية كوزراء أو وزارة الخارجية كمؤسسة إلى جمع هذه الخطب كما فعلت هيئة الاستعلامات بعد الثورة فى جمع خطب الرؤساء (عبد الناصر، والسادات) إلا الوزير عمرو موسى فى أربعة مجلدات تغطى أربع سنوات فقط من وزارته (١٩٦٤-١٩٩٧). وزارة الخارجية: سياسة مصر الخارجية، من واقع بيانات السيد الوزير/عمرو موسى وزير خارجية جمهورية مصر العربية (أربعة أجزاء). مطابع الهيئة العامة للاستعلامات.

عنها المواقف والتحليلات السياسية للإشكالات، أقرب إلى المسؤولية الدبلوماسية التى تنتقى مواطن الأمان وتتجنب الأشواك. يصف "زمن الانكسار والانتصار" من ١٩٦٧-١٩٧٣ دون التعرض إلى زمن الانهيار والضياع وغيام الرؤية منذ ١٩٧٩ والتغير فى الثوابت فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية[1]. عيب المذكرات فى مجموعها الرؤية الذاتية وليس الوصف الموضوعى، السيرة الروائية وليس التحليل السياسى، فن الأدب وليس علم السياسة، تدخل الخيال وتكبير الذات وادعاء البطولة، والنسيان، والرؤية الجزئية لمرحلة ولتشخص وليست الرؤية الكلية لحقبة فى مسار التاريخ الكلى.

٣- ثقافة وزراء الخارجية العامة وخلفياتهم التعليمية القانونية أو الأدبية أو العسكرية وأثر ذلك على تصوراتهم للعلاقات الدولية وكيفية ممارسة العمل السياسى. ولا توجد مادة مباشرة لذلك إلا من خلال المذكرات أو بيانات التدرج الوظيفى وملفات الخدمة. كما يمكن معرفة ذلك عن طريق الثقافة السياسية التى تعبر عن نفسها فى أيديولوجيات واضحة ليبرالية (محمود فوزى) أو اشتراكية (مراد غالب) قبل الثورة وبعدها. بل إنه يمكن تصنيف وزراء الخارجية إلى صنفين. الأول الدبلوماسيون الحرفيون الذين يؤدون مهامهم فى حدود وظائفهم. والثانى المثقفون الذين جمعوا بين التمثيل الدبلوماسى والنشاط الفكرى والأدبى (محمد حسين

---

(١) د. صليب باشا سامى (١٨٩١-١٩٥٢) نقد وتحقيق د. سامى أبو النور، مدبولى، القاهرة ١٩٩٩.
- إسماعيل فهمى: التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط، مدبولى، القاهرة ١٩٨٥.
- مذكرات محمد إبراهيم كامل، وزير خارجية مصر الأسبق: السلام الضائع فى اتفاقيات كامب ديفيد، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، القاهرة ١٩٨٤.
- مذكرات محمود رياض (١٩٤٨-١٩٧٨)، (جزاءان). الأول: البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط. الثانى: ١- الأمن القومى العربى بين الإنجاز والفشل ٢- أمريكا والعرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط٢/١٩٨٧ بالرغم مما بين الموضوعين من ترابط مما أدى إلى التكرار بين الجزأين.
- د. عصمت عبد المجيد: زمن الانكسار والانتصار، مذكرات دبلوماسى عن أحداث مصرية وعربية ودولية، نصف قرن من التحولات الكبرى، دار الشروق، دار النهار، القاهرة، بيروت ١٩٩٩. وكان الدافع على كتابتها السيدة زوجته وليست أحداث الوطن. وهو أصغر المذكرات حجماً.

هيكل، عبد الرحمن عزام). ويشمل هذا التقسيم أيضاً وكلاء الوزارة والسفراء ومستشارى الرئيس للشئون الخارجية (مصطفى الفقى، تحسين بشير، أسامة الباز).

٤- ولما كانت الخارجية ليست فقط وزراؤها بل أيضاً سفراؤها فى الخارج وسفراء الدول فى الداخل يمكن تتبع الثقافة السياسية للخارجية المصرية فى النشاطين الرئيسيين لها. الأول دور ممثليها وقناصلها وسفرائها ومستشاريها ومندوبيها فى الخارج، فى القنصليات والسفارات والمنظمات المحلية والإقليمية والدولية لمعرفة مدى اتساق سياساتها مع سياسات الحكومة واحتمال التعارض بين الضمير الوطنى فى الخارج والسياسة التابعة فى الداخل أو العكس خاصة قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. والثانى وجود قناصل الدول الأجنبية وسفرائهم ومندوبيهم فى الداخل وكيفية التعامل معهم، ومدى تدخلهم فى الشئون السياسية تعاطفاً مع الحركة الوطنية وحزب الأغلبية أو تعاملاً مع القصر وأحزاب الأقلية منذ نشأة وزارة الخارجية فى عهد محمد على حتى السنوات الأولى لثورة يوليو ١٩٥٢[١]. وقد كان التمثيل المصرى فى الغرب هو الشائع وفى الشرق أقل شيوعاً، وفى الوطن العربى والعالم الإسلامى[٢].

٥- المعاهدات والمواثيق الدولية التى تعقدها وزارة الخارجية وتحليلها لمعرفة اتجاهاتها السياسية التى قد تكشف أيضاً عن الثقافة السياسية الموجهة لها. فقد تكشف بنودها وصياغاتها عن الثقافات السياسية التى وراءها كدافع وإرادات للطرفين إلا الأطراف الموقعة عليها خاصة فيما يتعلق بالمساواة بين الطرفين أو بقبول طرف إرادة الطرف الآخر.

---

(١) وعلى هذا الأساس قسمت د. صفاء محمد فتوح شاكر رسالتها للدكتوراه " الخارجية المصرية ١٩٧٣-١٩٥٣ ". الفصل الأول التمثيل المصرى فى الخارج، والثانى التمثيل الأجنبى فى مصر. والثالث والرابع، أثر الحرب العالمية الثانية على الخارج، والخامس وزراء الخارجية فى هيئة الأمم المتحدة. والسادس والسابع من جديد حوله الداخل والخارج (رسالة غير منشورة)، جامعة عين شمس، كلية البنات، إشراف أ.د. يونان لبيب رزق ١٩٩٧. والرسالة أقل دلالة من كتاب الأستاذ: الخارجية المصرية ١٨٢٦-١٩٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، وأقرب إلى الأحداث والوقائع منها إلى الدلالات والمعانى خاصة فى الفصول الأولى.

(٢) صفاء شاكر: ص ١٥.

٦- تقارير وزارة الخارجية الداخلية والخارجية التى يكتبها النواب والمساعدون والخبراء فى لجان التخطيط فى الداخل أو القناصل والسفراء والمستشارون والوزراء المفوضون فى الخارج والتى قد تكشف عن التفاعل الثقافى بين الخارجية المصرية والدول الأجنبية وصراع المصالح وتوازن القوى والتى تمد الوزارة بالمعلومات اللازمة لتكوين رؤية سياسية تتفاعل فيها الثوابت والمتغيرات، الثقافة والسياسة.

٧- المراجع العامة عن تاريخ الوزارات فى مصر خاصة وزارة الخارجية والتى قد تكشف فى بعض جوانبها الثقافة السياسية للخارجية المصرية. وتتفاوت بين ثلاثة أنواع: الأول يجمع بين التاريخ والدلالة، بين الأحداث ومعانيها، بين الكم والكيف كنموذج للدراسات التاريخية الوطنية[١]. والثانى أقرب إلى التاريخ منه إلى الدلالة، ومن الحدث منه إلى المغزى طبقاً للمنهج التاريخى التقليدى فى الرصد وكما هو الحالى فى الدراسات الاستشراقية، وان كان التاريخ المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية أصبح موضوعاً للعلوم السياسية التى تخضع بعض الدراسات فيها إلى نظريات العلوم السياسية الوافدة من الغرب لسد النقص النظرى المستقل[٢]. والثالث الدراسات التاريخية الخالصة، مجرد رصد بلا دلالة، ونظم وقوانين وقوائم وجداول إحصائية بلا قراءة، كم بلا كيف وفى الغالب من الهواة من غير المتخصصين. فما أسهل التجميع وما أصعب الاستنتاج. تعمل الحواس ولا يعمل الذهن. وتغلب علوم المكتبات على علوم الثقافة بالرغم من الادعاء بالجمع بين التاريخ الفكرى والتاريخ الاجتماعى والبحث عن الهياكل. وهناك فرق بين الهيكل التنظيمى والبنية الذهنية[٣].

---

(١) د. يونان لبيب رزق: الخارجية المصرية ١٨٢٦-١٩٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

(٢) د. جهاد عودة: نظام السياسات الخارجية المصرية، ميريت، القاهرة ٢٠٠٠. ويبدو أنها رسالة علمية فى جامعة غربية ترجمت إلى اللغة العربية كما يبدو فى أسلوبها.

(٣) د. محمد الجوادى: البنيان الوزارى فى مصر ١٨٧٨-١٩٩٦، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٦. ويكشف العنوان الفرعى عن هذه النزعة التاريخية الخالصة توزيع المسؤوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة ١٩٥٢-١٩٩٦.

٨- كشافات الصحف مثل كشاف الأهرام وشبكات المعلومات المتوافرة حول وزارة الخارجية ومداخلها المتعددة. وغالباً ما اعتمدت بعض الدراسات فى العلوم السياسية عليها اعتمادا كليا[١]. وهى المادة الأولية الخام. عيبها الابتسار والتلخيص وتدخل الصحفى فى الصياغة. والأفضل الوثائق المباشرة الرسمية فى المحفوظات.

وقد تم استبعاد مذكرات العسكريين بالرغم من أهميتها سواء فى حالة الاتفاق (محمد فوزى) أو فى حالة الاختلاف مع القيادة السياسية (سعد الدين الشاذلى) بالرغم من ارتباط الخارجية بالمؤسسة العسكرية من خلال مجلس الأمن (الدفاع) القومى. كما تم استبعاد مذكرات السياسيين فى الهيئات الدولية بالرغم من صلة الخارجية بها (بطرس غالى). وتم أيضاً استبعاد مذكرات ثوار يوليو لرؤية عامة للثورة بدايتها وتطورها ونهايتها (محمد نجيب، خالد محى الدين) التى تكشف عن الثقافة السياسية بمعنى الأيديولوجيات السياسية للدولة بالرغم من ارتباط الخارجية بها كأداة منفذة. ولم يتم استخدام السير الذاتية للرؤساء (البحث عن الذات) لأن خيالها أكثر من واقعها إلا من أجل دراسة العامل الشخصى فى الثقافة السياسية للرياسة وتعاملها مع الخارجية. كما لم يتم الاعتماد على كتابات الصحفيين الأدباء القصاصين الذين يكتبون بعد الحدث وليس قبله مستشرفين له أو معه محللين له (هيكل)[٢]. وأخيراً تم استبعاد مذكرات الطرف الآخر (وايزمان، دايان، كسنجر، بيجن، بيريز). فهى موضوع دراسة لثقافة الآخر وليست لثقافة الأنا[٣].

وقد أنشئت إدارة العلاقات الثقافية بالخارجية المصرية والمكاتب الثقافية فى السفارات وتعيين مستشارين ثقافيين بالتوازى مع العلاقات الثقافية الخارجية بوزارة

---

(١) مثل د. جهاد عودة: المرجع المذكور.

(٢) محمد فوزى: حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧-١٩٧٠. مذكرات الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية الأسبق. سعد الدين الشاذلى: مذكرات حرب أكتوبر. بطرس غالى: خمس سنوات فى بيت من زجاج. محمد نجيب: كلمتى للتاريخ. خالد محى الدين: والآن أتكلم. السادات: البحث عن الذات. هيكل: حديث المبادرة.

(٣) عزرا وايزمان: معركة السلام. موسى دايان: نجاح ساحق. هنرى كسنجر: المحادثات السرية. ثلاث صحفيون إسرائيليون: عام الحمامة.

الثقافة. لم تكن الشئون الثقافية جزءاً من إدارة وزارة الخارجية فى مراحلها الأولى. كان مكتب الوزير يتكون من إدارة المراسم، وإدارة الشئون السياسية والتجارية والإدارية، وإدارة التبعيات والمالية، وإدارة المحاسبة والمستخدمين والمحفوظات والمكتبة. وكانت السياسة والتجارة نفس القسم.

كان الإعلام هو البديل عن الثقافة قبل الثورة وبعدها فى أوائل عهدها. فقد كان مكتب الوزير يشمل قسم الترجمة وقسم الصحافة وإدارة المكتب فى تنظيم ١٩٣٨ وتنظيم ١٩٤١. ثم انفصلت إدارة الصحافة والاستعلامات فى تنظيم ١٩٤٧، وانضمت الترجمة والمحفوظات مع المكتبة فى إدارة المستخدمين. وفى تنظيم ١٩٤٩ أنشأ لأول مرة قسم الترجمة والتحرير فى إدارة المعاهدات والمؤتمرات، وأضيف إلى إدارة الصحافة قسم الصحافة والإذاعة وقسم الإعلام والاستعلامات وقسم الدعاية، ولأول مرة قسم العلاقات الثقافية[١].

وبعد الثورة اهتمت وزارة الخارجية بالشئون الثقافية والإعلامية وجمع المعلومات والمحفوظات. ففى الهيكل الإدارى والتنظيمى ١٩٥٥ كان من ضمن مهام الوزارة القيام بنشر الأنباء والمعلومات التى تعرّف مصر فى الخارج. وكان قسم المعلومات يتكون من مكاتب البحوث والإرشاد والترجمة. ولأول مرة فى إدارة المعاهد والاتفاقات الدولية خصص القسم الثقافى بالإضافة إلى السياسى والاقتصادى والاجتماعى والترجمة والمكتبة. فالثقافة جزء من الإعلام[٢].

وفى الجمهورية الأولى فى عهد الوحدة ١٩٥٨-١٩٦١ كان من الأهداف العامة للوزارة الدعوة إلى القومية العربية وأسسها: الحياد الإيجابى والاشتراكية الديموقراطية التعاونية والوحدة. وكما شملت مجموعة الشئون السياسية إدارة الهيئات الدولية والمؤتمرات والإدارة العامة للأبحاث شملت الإدارات الفنية إدارة العلاقات الثقافية وإدارة الصحافة. وفى الجمهورية الثانية وتحول الثورة ابتداء من

---

(١) د. صفاء شاكر: ص ٤٢-٥٣. يونان لبيب رزق: ص ٢٥٩-٢٦٣.

(٢) د. جهاد عودة: ص١١/١٥-١٦/٢٢-٢٤/٢٨-٣٢/٣٥-٣٨/٤٠-٥٠.

تصحيح ١٥ مايو ١٩٧١ وعام الحسم، وبداية التوتر مع الاتحاد السوفيتى ومحاولة أمريكا عزل مصر والتعاون الأمريكى الإسرائيلى والانفتاح والدعوة إلى الاشتراكية الديموقراطية تغير الإعلام. واستمرت إدارة الشئون الثقافية ضمن مجموعة الإدارات الفنية. وانضمت إدارة المعهد الدبلوماسى إلى مجموعة التدريب وإدارة المكتبة. وبعد كامب ديفيد فى ١٩٧٨ واتفاقية السلام فى ١٩٧٩ من أجل كسر "الحاجز النفسى" أنشئت إدارة مستقلة تحت اسم لجنة تطبيع العلاقات المصرية الإسرائيلية. وتشكل فريق للشئون العربية الإسرائيلية. وأصبحت إدارة العلاقات الثقافية ضمن إدارات العلاقات الفنية الدولية[١].

وفى كل هذه الهياكل التنظيمية اقتصرت مهمة إدارة العلاقات الثقافية على الموافقة على المؤتمرات الدولية فى الداخل والخارج، وتوثيق المعاهدات الثقافية، وتدعيم النشاط الثقافى لمصر، بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم، ووزارة التعليم العالى. وظلت متداخلة مع الإعلام. فالثقافة إعلام الدولة، والدولة ثقافة الإعلام. ولم يكن دورها صياغة ثقافة سياسية للخارجية المصرية أو لمؤسسات الدولة.

وكما حدث خلط بين الثقافة والإعلام فى إدارة الثقافة فى الخارجية المصرية حدث نفس الخلط بين وزارات الثقافة والإعلام والإرشاد القومى. ففى وزارة على صبرى الثانية مارس ١٩٦٤ ظهر مسمى وزير الإعلام لأول مرة بديلاً عن الإرشاد القومى نظراً للاختيار الأيديولوجى الواضح فى الجمهورية الأولى. وفى أكتوبر ١٩٧٨ لم تفلح محاولة إلغاء وزارة الإعلام خوفاً من استقلالها عن اختيارات الجمهورية الثانية المضادة بعد اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨. وفى وزارة السادات الأولى كان عبد القادر حاتم نائباً للثقافة والإعلام. بل وانضمت إليها أحياناً السياحة والآثار ما دام الجميع يتعاون مع الخارج[٢].

---

(١) وقد عين الوزير عمر موسى منذ سنتين وكيل وزارة خاص السفير مى أبو الدهب لإدارة العلاقات الثقافية.

(٢) د. محمد جوادى: ص ٣١/٢٦/٢٣.

وكانت وزارة الخارجية من الوزارات الثمانية الأولى منذ ١٨٧٨. وبعد الثورة أنشئت وزارات الثقافة والتعليم العالى وشئون الأزهر والبحث العلمى مما يبين اهتمام الثورة بالثقافة والعلم الدينى[١].

وفى الجمهورية الثانية صدر قرار فى مارس ١٩٧١ بتعيين شئون دولة للشئون الخارجية. واستمر هذا التقليد طوال الجمهورية الثانية إلى جوار وزارة الخارجية حتى يسهل على الرئيس أن ينفذ سياسته فى قناتين إن استعصت قناة وزارة الخارجية. وعاد المنصب فى مايو ١٩٧٤. وأحياناً يتم توسيع اختصاصات وزارة الخارجية فتنضم إليها وزارة الهجرة بعد اختيار بطرس غالى سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٩١[٢].

ويمكن عرض الثقافة السياسية للخارجية المصرية بمنهجين. الأول المنهج التاريخى لتتبع تطور الثقافة السياسية للخارجية المصرية منذ نشأة النظارة فى ١٨٢٦ حتى عام ٢٠٠١. ويمكن تقسيم هذا التاريخ إلى أربع مراحل رئيسية تتضمن كل مرحلة فترات أخرى فرعية.

---

(١) الأول وزارة للإرشاد القومى فى ١٩٥٢/١١/١٧ وعين فيها فتحى رضوان وزير دولة للإرشاد القومى وهى أول وزارة أنشأتها الثورة، ثم محمد فؤاد جلال الدين استقال من وزارة نجيب الثانية فى يونيو ١٩٥٣ ثم عين فيها صلاح سالم مع شئون السودان. وكان أول ضابط يتولاها مع شئون السودان، ثم فتحى رضوان فى نوفمبر ١٩٥٥ ثم فى ١٩٥٦ ثم فى وزارة الوحدة الأولى فى فبراير ١٩٥٨ ثم ثروت عكاشة وزير الثقافة والإرشاد القومى والإعلام والسياحة والآثار. وفى ١٩٦٥ عين أمين هويدى للإرشاد القومى. وهو رابع ضابط بعد صلاح سالم وثروت عكاشة وعبد القادر حاتم. ثم عاد عكاشة فى سبتمبر ١٩٦٦ نائباً لرئيس الوزراء ووزير الثقافة. ثم تولاها محمد فائق خامس ضابط فى إبريل ١٩٧٠ ثم هيكل الذى فى بداية عهد السادات ثم فائق فى أكتوبر ١٩٧٠ وخلفه حاتم. ثم ساد مسمى الإعلام. وعين كمال أبو المجد وزير الإعلام، والسباعى للثقافة فى ١٩٧٤ ثم العطيفى حتى فبراير ١٩٧٧ ثم عبد المنعم الصاوى ثم منصور حسن الاثنين معاً، الثقافة والإعلام حتى سبتمبر ١٩٨١ ثم محمد عبد الحميد رضوان حتى ١٩٨١ ثم صفوت الشريف منذ عام ١٩٨٢، د. محمد جوادى: ص٤٤-٤٥.

الوزارات الثمانية هى: الداخلية والحربية والمالية والأوقاف والأشغال والمعارف. وأضيفت بعد الثورة وزارات الاقتصاد، وشئون رياسة الجمهورية، والإرشاد القومى والإصلاح الزراعى والصناعة والتخطيط والعمل والإدارة المحلية والسد العالى والإسكان والمرافق وإصلاح الأراضى، د. محمد جوادى: ص٢٢.

(٢) د. محمد جوادى: ص ٢٨.

١- مصر وبحر برة ١٨٢٦-١٨٧٨. وهى الفترة الممتدة من أول نظارة فى مصر حتى أول برلمان فى تاريخ مصر الحديث، عصر محمد على وإسماعيل.

٢- من الاحتلال حتى المعاهدة ١٨٧٨-١٩٣٦. وهى الفترة الممتدة من إسماعيل وتوفيق وعباس وفؤاد باستثناء فترة الحماية على مصر وتشمل ثلاث فترات:

أ- مصر تحت البرلمان ١٨٧٨-١٩١٤ منذ أول برلمان حتى الحماية.

ب- مصر تحت الحماية وإلغاء وزارة الخارجية ١٩١٤-١٩٢٢.

جـ- مصر من الثورة حتى المعاهدة ١٩٢٢-١٩٣٦.

٣- من المعاهدة حتى الثورة الثانية ١٩٣٦-١٩٥٢ وهى فترة النضال الوطنى فى الأربعينات بفضل حزب الوفد والحركة الوطنية المصرية وهى الفترة التى تكون فيها الضباط الأحرار.

٤- من ثورة يوليو ١٩٥٢ حتى اليوم وهى فترة التجربة المصرية الثانية الاشتراكية بعد الليبرالية، والقومية بعد الوطنية، ويمكن التمييز فيها بين ثلاث فترات:

أ- الجمهورية الأولى ١٩٥٢-١٩٧٠. وهى الفترة الناصرية التى شهدت عصر النصر والهزيمة والمد القومى العربى والاستعداد لحرب أكتوبر.

ب- الجمهورية الثانية ١٩٧٠-١٩٨١. وهى الفترة التى بدأ فيها الصراع بين الرياسة من ناحية والخارجية والحزب والشعب من ناحية أخرى والتى تحول فيها نصر أكتوبر إلى هزيمة سياسية.

جـ- الجمهورية الثالثة ١٩٨١-٢٠٠٠. وهى فترة محاولة العودة إلى الثوابت الوطنية فى السياسة والتنازل عن الاختيار الاشتراكى[1].

---

(١) د. صفاء شاكر: ص ١٥.

وبالرغم من أهمية التحقيب التاريخى لمعرفة التحولات فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية مع الرياسة أو مستقلة عنها إلا أن عيبه هو تكرار الثوابت فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية، وعدم وضوح البنية السارية داخل المراحل. كما يختلف المؤخرون فى مدى التحقيب، قصره وطوله، معاييره ودلالاته. كما تتداخل المراحل الكبرى مع الفترات الصغرى. فالثورة المصرية مثلاً منذ ١٩٥٢ حتى الآن مرحلة واحدة تتخللها ثلاث فترات، كل منها له نظامه السياسى واختياراته وأولوياته. بل إن المرحلة الليبرالية أيضاً منذ ١٨٧٨ تتخللها ثلاث فترات أيضاً ما قبل فرض الحماية ١٩١٤، وأثناء الحماية ١٩١٤-١٩٢٢، وبعد الحماية حتى المعاهدة ١٩٢٢-١٩٣٦.

والثانى المنهج البنيوى الذى يحاول إيجاد بنية للثقافة السياسية للخارجية المصرية عبر المراحل والفترات التاريخية مثل نمطى الثقافة السياسية قبل ١٩٥٢، الاستقلال والتبعية، واستمرار هذا النمط بعد ثورة ١٩٥٢. إنما الخلاف فى التبعية لمن؟ بريطانيا أولاً والولايات المتحدة الأمريكية ثانياً أى الاستقلال الوطنى والتحالف مع الغرب الأوربى أولاً والأمريكى ثانياً. وقد استمر نفس النمطين بعد ثورة ١٩٥٢ فى توتر حاد فى الفترة الأولى، العهد الناصرى لصالح الاستقلال الوطنى الثابت فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية، والتحول فى الفترة الثانية ١٩٧٠-١٩٨١ لصالح التبعية لأمريكا وإسرائيل، ثم العودة إلى التوازن بين النمطين فى ظروف سياسية داخلية وإقليمية ودولية متغيرة فى الجمهورية الثالثة.

وموضوع الثقافة السياسية للخارجية المصرية موضوع اجتهادى صرف، تتعدد مادة تحليله وأدواته. لم يتم التطرق إليه كثيرا[1]. ومازال فى حاجة إلى عديد

---

(١) هناك دراسة د. عزمى خليفة "الثقافة السياسية والدبلوماسية المصرية" ضمن المجلدين الكبيرين لأعمال المؤتمر السنوى السابع للبحوث السياسية، القاهرة ٤-٧ ديسمبر ١٩٩٣، مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة ١٩٩٤. تحاول وصف نمطى الثقافة السياسية المصرية، وتحدد خصائص الدبلوماسية المصرية، وتركز على نمط التفاوض المصرى. وهناك أيضاً "الجهاز الدبلوماسى المصرى بين العراقة والعتاقة" سياسة مصر الخارجية فى عالم متغير، أعمال المؤتمر السنوى الثانى للبحوث السياسية مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة ١٩٩٠.

من الدراسات ضمن خطة شاملة لدراسة الثقافة السياسية فى مصر كجزء من الثقافة الوطنية الحامل للأيديولوجيات السياسية، ليبرالية أو قومية أو اشتراكية أو إسلامية.

ثانيا: أنماط الثقافة السياسية للخارجية المصرية.

منذ نشأة نظارة الخارجية فى مصر فى ١٨٢٦ تعاقب عليها نمطان للثقافة السياسية. الأول النمط الغربى الذى حمله الأتراك والأرمن وخريجو المدارس الأجنبية والإرساليات التبشيرية من طبقة الأعيان وكبار ملاك الأرض. هى الثقافة السياسية التابعة الممثلة فى ثقافة الأقليات والمدارس الأجنبية، ثقافة الإنجليز والقصر والإقطاع وأحزاب الأقلية. كانت بريطانيا نموذج الغرب كما كان الحال لدى المثقفين فى الهند مثل السيد أحمد خان. والثانى النمط الوطنى من خريجى مدرسة الحقوق الفرنسية الذى يدافع عن الاستقلال ضد بريطانيا والقصر والنخبة التركية الأرمنية الحاكمة. مثله المثقفون الوطنيون من الطبقة المتوسطة وبعض الأساتذة الجامعيين. وهو يعادل حزب المؤتمر فى الهند.

ويدل على النمط الأول اسم وزارة الخارجية فى نشأتها "ديوان التجارة والأمور الافرنكية". ميدانها "بحر برة"، لا فرق فيه بين التجارة والسياسة. فكلاهما تعامل مع الخارج[1]. بدأت منذ اتصال مصر بالخارج منذ على بك الكبير (١٧٦٠-١٧٧٢)، ومحمد على (١٨٠٥-١٨٤٨). ساد النفوذ الفرنسية فى الشرق العربى كله فى القرن الثامن عشر ثم تحول إلى النفوذ الإنجليزى فى القرن التاسع عشر لاهتمامها بالإمبراطورية العثمانية. فكانت الثقافة الأوربية هى الساندة على وزارة الخارجية المصرية فى مرحلتيها الأولى والثانية قبل إلغائها أثناء الحماية[2]. وكان بعض ممثلى مصر فى الخارج متزوجين من أجنبيات مما يجعل التمثيل المصرى

---

(١) كان اسمها ديوان التجارة فى ١٨٢٦ ثم ديوان التجارة والأمور الافرنكية فى ١٨٣٥، ثم ديوان التجارة والأمور الخارجية فى ١٨٤٤ ثم ديوان الأمور الخارجية فى ١٨٥٢.

(٢) د. جهاد عودة: ص ٩٠.

أقرب إلى الغرب[1].

وأثناء الاحتلال زاد عدد الأجانب فى مصر من الأوربيين وجزر البحر الأبيض المتوسط. وانتشرت مدارس التعليم الأجنبى والإرساليات لسد الحاجة فى الوظائف العامة فى التجارة والبنوك والمؤسسات الاقتصادية وشركات تملك الأراضى والتوسع العمرانى. وصدرت الصحف باللغات الأوربية خاصة الفرنسية والإيطالية واليونانية والإنجليزية. وكان ذلك من اختصاصات وزارة الخارجية بما فى ذلك بناء الجبانات للأروام الأرثوذكس وغيرهم من الطوائف المسيحية الأجنبية فى مصر. وتحولت الوزارة من الاهتمام بالخارج إلى الاهتمام بالداخل. بل انقطعت علاقاتها بالخارج تماماً بما فى ذلك تركيا أثناء فترة الحماية. وكانت بريطانيا هى التى تمثل مصر فى الخارج. تعقد المعاهدات باسمها مثل معاهدة الرقيق المصرية البريطانية عام ١٨٧٧.

ويصور عصمت عبد المجيد مدينة الإسكندرية وسيادة الثقافة الغربية عليها من تحليل دلالات الأسماء الأجنبية الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية: بولكلى، سان مارك، زيزنيا، سان ستيفانو، كامب شيزار، تريا نون، جليمونو بولو، متنافسة مع الشاطبى وسيدى جابر ورشدى ومصطفى باشا والإبراهيمية[2].

وعندما عادت وزارة الخارجية فى الفترة ١٩٢٢-١٩٣٧ كانت اللغة الفرنسية السائدة داخل الوزارة بالرغم من مرور أربعين عاماً على احتلال انجلترا لمصر[3]. كانت اللغة الفرنسية قد دخلت من قبل لدى الباب العالى فى استانبول منذ منتصف القرن السادس عشر بعد عقد المعاهدة العثمانية الفرنسية عام ١٥٣٥. فقد كانت مصر جزءاً من الدولة العثمانية. كما اعتمد محمد على فى القرن التاسع عشر على الخبراء الفرنسيين. فانتشرت اللغة الفرنسية فى سائر الإدارات المصرية. كما نقلت

---

(١) كانت زوجة صادق حنين باشا قنصل مصر فى إيطاليا إيطالية، يونان لبيب رزق: المرجع المذكور ص١٨٦. ثم تم السماح للزواج من عربية أو ممن تجنس بالجنسية العربية بقرار جمهورى.

(٢) عصمت عبد المجيد: ص ١٣-١٤.

(٣) يونان لبيب رزق: ص ٨٦-٨٧/١٠٩-١١١ د. صفاء شاكر: ص ٢١.

أغلب القوانين الحديثة عن الفرنسية. وكانت أغلب البعثات التى أرسلتها مصر فى عهد محمد على حتى عصر إسماعيل إلى فرنسا حتى أصبحت اللغة الفرنسية اللغة الأجنبية الأولى لأبناء الطبقة الراقية، سدنة الحكم من الأفندية. ونشأت علاقة خاصة بين الخارجية وخريجى مدرسة الحقوق التى كانت تسمى مدرسة الحقوق الفرنسية أو المصرية أو الملكية. وظلت اللغة الفرنسية لغة التدريس فيها حتى بعد أن تحولت الجامعة من أهلية إلى حكومية عام ١٩٢٥. وكانت لغة الطبقة الأرستقراطية التى يعين منها وزراء الخارجية. واستمرت كذلك حتى بعد أن تمصرت الطبقة. بل إن اللغة الفرنسية كانت منذ بلاط لويس الرابع عشر فى القرن السابع عشر لغة الدبلوماسية و"الايتكيت" و"البروتوكول". كانت هى اللغة العالمية التى لم تستطع الخارجية المصرية تجاهلها. وكان رجال القصر الذين يعينهم الملك فى المناصب الحكومية أيضاً من نفس الثقافة. وكانت لغة الجاليات الأجنبية فى مصر لدرجة أنها أصبحت لغة الحياة اليومية فى الأسواق عبر المصطلحات الجديدة. ويروى صليب باشا سامى فى حوار مع الملك عن ضرورة قطع العلاقات مع حكومة فيشى فى فرنسا. فقال الملك: إن فرنسا صديقة دائمة لمصر وأن رجالها قد أدوا خدمات جليلة لمصر فى عهد جده محمد على، وأول الدول التى ساعدت على نشر التعليم فى مصر[1].

وقد صدر الأمر العالى فى ١٨٧٨/١٢/١٠ باختصاص نظارة الخارجية "بالمطابع والمطبوعات الأورباوية". فقد كان فى مصر فى ١٨٨٠-١٨٨٥ حوالى خمس عشرة صحيفة أجنبية أغلبها بالفرنسية، وبعض صفحاتها بالعربية. وكان أصحابها يتمتعون بحماية قناصلهم. وكثيراً ما كان ذلك يؤدى إلى أزمات سياسية ودبلوماسية. أشهرها ما حدث فى ١٨٨٥ عندما عطلت الحكومة المصرية جريدة البوسفور اجيبسيان وتوجيه الحكومة الفرنسية إنذار إلى الحكومة المصرية مما أدى إلى اعتذار نوبار باشا وزير الخارجية بتوجهه إلى قنصلية فرنسا بملابسه الرسمية

---

(١) صليب باشا سامى: ص ٢٥١.

وتقديم الاعتذار بنفسه. وبعد عودة العمل بالقانون عام ١٩٠٩ حدث توتر شديد بين الخارجية المصرية وبعض المعتمدين الأوربيين عندما نجحت جريدة "لى دبيش اجيبسيان" التى كانت تصدر بالعربية والفرنسية فى الاتصال بزعماء الحزب الوطنى وشن حملة عنيفة على الخديوى نفسه الذى ساءت علاقته بالحزب عام ١٩١٠. ونظراً لنظام الامتيازات لم يستطع الخديوى البطش بالصحيفة، ولكن تدخلت نظارة الخارجية لحل الأمر. فبعد أن نشر ديروجا مقالاً فى الهجوم على الخديوى استدعى حسين رشدى ناظر الخارجية المعتمد الفرنسى والقائم بالأعمال الأسبانى، وطلب منهما أبعاد صاحب الصحيفة ورئيس تحريرها وإخراجهما خارج البلاد.

كانت الصحف الأوربية تمثل أحد هموم نظارة الخارجية بسبب موضوعين حساسين تتناولهما الصحف. الأول الإرساليات التبشيرية التى كان سلوكها يمثل استفزاز الرأى العام الإسلامى. فقد نشرت جريدة المرشد الأسبوعية التى كانت تصدرها إرسالية البرسبتيريان الأمريكية مقالاً بعنوان "ضعف الإسلام" تطعن فيه على الدين الاسمى. فطلب حسين رشدى باشا من القائم بالأعمال الأمريكى إغلاق الجريدة على الفور حتى دون الرجوع إلى واشنطون. وقد تمت الاستجابة إلى طلبه. والموضوع الثانى بعض الجماعات الأوربية النشطة من الفوضويون واليهود التى انتشرت فى مصر مما أدى إلى اندلاع مظاهرات فى القاهرة والإسكندرية أمام القنصليتين الروسية والإيطالية مما أدى إلى اعتذار بطرس باشا غالى إلى القنصليتين[1].

وكان من هموم نظارة الخارجية أيضاً المحاكم المختلطة. والتى كانت تخضع لها ليس فقط من النواحى الإدارية مثل مد العمل بها بل من حيث عملية اختيار القضاة الأجانب فيها التى كانت من حق الحكومة المصرية. ولما كانت العناصر تعترض نشأت مسجلات بين النظارة والقناصل كانت تنتهى أحياناً إلى بعض الأزمات الدبلوماسية.

---

(١) يونان لبيب رزق: ص ٥٨-٦٢.

كانت الخبرات الأوربية فى التنظيم والإدارة خلال الحملة الفرنسية هى التى استفاد منها محمد على فى بناء الدولة الحديثة. ومنها فئة المترجمين مثل باغوص بك الأرمنى المسيحى الذى كانت لديه معلومات وفيرة عن السوق الأوربية. وأصبح أول وزير للخارجية المصرية، رئيس ديوان الأمور الافرنكية والتجارة. يجيد اليونانية والإيطالية والفرنسية إلى جانب التركية والأرمنية. وكان معظم الوزراء من الأرمن الذين كانوا على دراية بالثقافة الغربية ويجيدون لغاتها. وقد لعب الأرمن الدور الأساسى فى مناصب الخارجية مثل نوبار باشا أول رئيس فى التاريخ المصرى الحديث فى عصر إسماعيل[1].

وكذلك أبناء الطبقة التركية القديمة مثل أدهم باشا كانوا بين النخب الحاكمة. فكان ذوالفقار باشا فى ثانى ناظر للخارجية من أصول تركية، وعدلى يكن آخر النظار من أصول مقدونية، تزوج أبوه شقيقة محمد على. لم يكن الأتراك أيضا غرباء عن هذه الصفوة المثقفة ثقافة أوربية. فقد تخرج معظمهم من مدارس خاصة، خاصة الفرنسية. ويعتبر شريف باشا نموذجاً لهؤلاء. فهو أحد أبناء الطبقة التركية الحاكمة. تربى فى قصر محمد على، وذهب إلى فرنسا عام ١٩٨٤ فى بعثة الارجال. وبعد خمس سنوات حصل على شهادة عسكرية عالية. وبعد أن استقر فى مصر تزوج من ابنة سليمان باشا الفرنساوى. ومثله بطرس غالى ويوسف وهبة وكانا على معرفة واسعة بالثقافة الأوربية. كان بطرس باشا يجيد العربية والفرنسية والتركية والإنجليزية والإيطالية والفارسية. وحرص على تعلم القبطية. ويوسف باشا وهبة كان رئيساً لمحكمة الاستئناف المختلطة قبل أن يتولى الوزارة. وكان ضليعا بالفرنسية التى كانت لغة التداول فى هذه المحاكم. وقد أنشئت مدرسة الألسن عام ١٨٧٦ لتعليم النخبة الحاكمة[2].

وكان معظم النظار فى هذه المراحل من طبقة الأعيان أو كبار ملاك الأراضى الزراعية. وقد نشأت هذه الطبقة فى عصر محمد على، وتطورت فى عصر إسماعيل،

---

(١) السابق ص٦٢/٤٢-٦٤، جهاد عودة: ص٩٨-٩٩.

(٢) يونان لبيب رزق: ص٥٠-٥٣، جهاد عودة: ص٩٩.

واستقرت فى عهد الاحتلال البريطانى. وقد حصلت هذه الطبقة على أملاكها من الهبات الكبيرة التى تلقاها أبناء الطبقة التركية التى كانت تمثل بلاط الحكام وذلك مثل شريف باشا وعلى ذوالفقار باشا. وقد حصل كل منهما على ألف فدان، وإسماعيل راغب باشا الذى حصل على خمسمائة فدان. وانضم إليهم نوبار باشا الذى حصل أيضاً على ألف فدان. ويصف صليب باشا سامى المقاهى التى كانت تقصدها الطبقة الراقية حيث تقدم أجود أصناف المأكولات والمشروبات على أنغام موسيقى تعزفها آنسات حسناويات يقودهن عازف شهير للكمان مع ناد للبلياردو[1].

وكان عبد الفتاح عمرو باشا مندوباً فوق العادة ووزيراً مفوضاً فى لندن بعد أن أقيل حسن نشأت لأن زوجته لا تحمل الجنسية المصرية. وحصل على لقب سفير فى ١٩٤٥. ونظراً لميوله الإنجليزية كان يحاول التأثير على الملك لصالح السفارة البريطانية. لذلك وصفه طه حسين بأنه يصلح أن يكون سفيراً لبريطانيا فى مصر أكثر مما يصلح سفيراً لمصر فى بريطانيا[2].

وكان الأقباط من هذه الطبقة من خلال اشتغالها بالصرافة فى الريف أو النظارة على التفاتيش الزراعية الكبيرة خاصة تفاتيش الأمراء الذين كانوا أشبه بالملاك الغائبين. ومنهم بطرس غالى. فقد كان أبوه غالى بك نيزوز ناظراً لتفاتيش مصطفى فاضل شقيق الخديوى إسماعيل. ظهر الأقباط كقوة فى ١٧٥٠ فى ظل على باشا الكبير. واحتفظوا بإدارة الجمارك وفى ميدان المال والتجارة.

تعاون البعض كأقلية مع السلطات الفرنسية تحت قيادة المعلم يعقوب حنا. والأغلبية شاركت فى المقاومة برئاسة المعلم جرجس الجوهرى. ويؤكد كلا الفريقين على مصرية الأقباط ضد تذبذب موقف الاحتلال الفرنسى أمامهم. ففى عهد كليبر ألغيت كافة الإجراءات الاستثنائية ضد الأقباط. ثم طردوا من الخدمة وجباية الأموال فى عهد مينو خاصة بعد إسلامه مما ترك أثراً سيئاً فيهم باعتبار أن فرنسا حامية

---

(١) يونان لبيب رزق: ص٥٤. صليب باشا سامى: ص٢١.

(٢) صفاء شاكر: ص٢٢٧.

لهم. ودعا المعلم يعقوب حنا للاستقلال وتكوين الجيش القبطى. وفى المقابل أكد المعلم غالى على ضرورة أن يكون المال اللازم للمشروعات مالاً مصرياً. ورفض البابا بطرس الجاولى حماية روسيا القيصرية لهم. وقد طلب محمد على من المعلم غالى ألف كنس، وأعدمه إبراهيم عندما عارضه بشأن بعض الضرائب المفروضة على المصريين باعتباره مصرياً. واضطهد البعض الآخر مثل المعلم رزق أيام محمد على. ثم دفعت فكرة الوحدة الوطنية قوة الهيكل القبطى إلى الأمام مما أضعفهم لأنهم أصبحوا مثل بقية الشعب المصرى. وتعرضوا لبطش الوالى. ولم تنظر إليهم أوربا كطرف فى المعاملات التجارية. ومن ثم فقدوا أهميتهم فى صياغة السياسة الخارجية المصرية. فبدأ التوتر العثمانى الأوربى يمارس من خلال القناصل والأقليات الأوربية بدلاً من الأقليات المحلية[1].

ويبدو التوجه الغربى فى موافقة الحكومة على مرور الطائرات الإيطالية من طرابلس عبر الحدود المصرية فى طريقها إلى مستعمرة ايرتيرة الإيطالية دون توقيع اتفاق مكتوب من أجل ضرب الحبشة. فلما عرض الأمر على الملك رفض الطلب الإيطالى فى حين وافق عليه صليب باشا سامى[2]. ومع ذلك ينقد طريقة استقبال لورد كرومر فى المدرسة التوفيقية عندما دخل المدرسة بعربته الفاخرة يتقدمها ساسان. وقفت أمام مكتب الناظر، واستلقيا على السلم المقابل يلهثان بعد أن جريا بسرعة الخيل من قصر الدوبارة إلى قصر النزهة. فكتب خطاباً إلى كرومر بالفرنسية بتوقيع طالب فى المدرسة التوفيقية يبين فيه التناقض بين نظام السياسة ومعالم المدنية الغربية، ويتعارض مع تعاليم المسيحية بل هو من آثار الرق فى عهود الذل، ومطالباً بإلغاء هذا النظام حتى يكون قدوة لسائر القناصل والأمراء والباشوات. فبالرغم من التوجه الغربى إلا أن المسيحية الوطنية فى الأعماق.

ومع ذلك كان للأقباط دور رئيسى فى تكوين وزارة الخارجية سواء من حيث وزاراتها أو من حيث علاقات مصر بالحبشة. فمن مجموع اثنين وثلاثين وزيراً فى

---

(١) يونان لبيب رزق: ص٥٤-٥٥.

(٢) صليب باشا سامى: ص١٧٣-٢٦/١٧٤.

الحقبة الأولى من تاريخ الوزارة ١٧٨٠-١٩٣٧ كان ستة منهم من الأقباط. وتولى البعض منهم الوزارة أكثر من مرة مثل تكران باشا، واصف بطرس غالى (خمس مرات)، بطرس غالى (ثلاث مرات)[١]. ويكشف حفل استقبال إمبراطور أثيوبيا أثناء حفل التتويج للوفد المصرى عن مدى أهمية الكنيسة القبطية كعنصر مشترك بين البلدين[٢].

كان الأقباط نصارى ديناً مسلمين ثقافة. فقد دافع صليب باشا سامى عن التراث الإسلامى ضد المهاجمين له فى الخارج. فعند زيارته إلى لندرة فى صيف ١٩٠٢ كانت تنظر إليه أسرة أستاذه نظرة المتمدينين لإنصاف المتمدينين، نظرة المستعمِرين للمستعمرين. إذ سألته السيدة على الطعام فى سخرية إذا كان صحيحاً أن الرجل فى مصر يتزوج من أربعة نساء وكم عدد زوجات والده؟. فأجاب بأن مثل هذا السؤال وجه إلى الخديوى عباس عندما كان يتلقى العلم فى فينا وأجاب بأن هذا صحيح لأنه فى كل أربع نساء قلما يجد الرجل امرأة واحدة صالحة للزواج. وهو سؤال مشين ينطبق على النساء المسلمات وغير المسلمات، المصريات والأوربيات. والمصرى لا يقل علماً أو تمدناً أو تحضراً من الإنجليزى. فتحولت سخرية البريطانيين من المصريين إلى احترام واصبحوا هم أنفسهم موضعاً للسخرية[٣].

ولما جرى القضاء الأهلى منذ إنشائه على تطبيق أحكام دين الموصى دون أحكام الشريعة الإسلامية على وصايا غير المسلمين عدلت محكمة النقض عن هذا الرأى من أجل توحيد أحكام الوصية بين المصريين. وقضت بسريان أحكام الشريعة الإسلامية على وصاياهم جميعاً مسلمين وغير مسلمين. ورأى صليب باشا سامى أن هذا الحكم قد جاوز أحكام التشريع القائمة ولكن الدافع عليه كان شريفاً

---

(١) هؤلاء الوزراء هم تكران باشا، واصف بطرس غالى، بطرس غالى، مرقص حنا. نخلة جورجى المطيعى، مرقص حنا.

(٢) صليب باشا سامى: ص١٥٠-١٦٩.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣-٣٤.

لأنه يحقق المساواة بين المواطنين. وكانت مناسبة له لكتابة "وصية غير المسلم". ثم نشر صليب باشا سامى فى جريدة الأهرام حديثاً عن الشريعة الإسلامية باعتبارها أسبق الشرائع فى تقرير الأحوال الشخصية التى وضعتها الدول لأول مرة فى مجمع أكسفورد ١٨٨٢ ثم أقرها مؤتمر لاهاى ١٩٠٢ اعتماداً على آيات قرآنية وأحاديث نبوية. فزاره حسن البنا وأعضاء مكتب الإرشاد لشكره ودعوته إلى حفل تكريم له. وهى زيارة اعتز بها صليب باشا سامى، وتكشف عن تجاوز اختلاف الأديان لصالح عام واحد[١].

وكان مكرم عبيد وزير الخارجية بالنيابة هو الذى أصدر قراراً فى سبتمبر ١٩٣٧ بضرورة جعل اللغة العربية أساساً للمكاتبات الوزارية مع جميع البلاد باستثناء الهيئات الأجنبية فى مصر مما يدل على ارتباط القبطية بالعروبة وليس فقط بالوطنية المصرية. ثم طالبت مصر بميزانية جديدة لعصبة الأمم فى السبعينات لطبع قراراتها وتوصياتها باللغة العربية وتوزيعها فى كافة أرجاء الوطن العربى. وتضافرت الجهود من أجل اعتماد اللغة العربية لغة رسمية فى مجلس الأمن عام ١٩٨٢. ويرجع الموضوع إلى ١٩٧٣ عندما تقدم ثمانية عشر مندوباً بخطاب إلى العام بإدخال بند اللغة العربية من بين اللغات الرسمية التى يعمل بها فى الجمعية العامة ولجانها الرئيسية والفرعية. فقد حافظت على الحضارة الإنسانية، وينطق بها مائة وعشرون مليوناً فى تسعة عشر بلداً، ويمارسون بها شعائر الإسلام، ومن أجل تفعيل دور الأمم المتحدة لدى الشعوب الناطقة بالعربية[٢].

والنمط الثانى فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية هو ثقافة الاستقلال الوطنى الممثلة فى الخارجية وحزب الأغلبية، الوفد، وأحزاب المعارضة والمثقفين الوطنيين وعلماء الأزهر. وهى الثقافة التى تكون فيها الضباط الأحرار قبل ١٩٥٢ المتمثلة فى الجيش والرياسة بعد الثورة.

---

(١) صليب باشا سامى: المرجع السابق ص٢٦٢/٦٣.

(٢) صفاء شاكر ص٤٠. عصمت عبد المجيد ص١٧٩.

تكشف وزارة الخارجية عن رغبة مصر فى الاستقلال عن الدول العثمانية أولاً تم عن الإنجليز ثانياً تم عن القصر ثالثاً. فقد اقتصرت صلاحيتها أولاً على التعامل مع الأجانب فى مصر حتى أواخر عصر محمد على كما جاء فى قانون سياسة نامه عام ١٨٣٧. ثم اتسعت حتى شملت المعاهدات الدولية والمطابع والمطبوعات الأورباوية والمحلية طبقاً للأمر العالى عام ١٨٧٨ بشأن اختصاص النظار طبقاً لما حصلت عليه مصر من الدولة العثمانية فى عصر إسماعيل من مظاهر الاستقلال. وانتهت علاقة مصر بالدولة العثمانية إلى إنهاء التبعية بين القاهرة واستانبول على مدى أربعة قرون، وتغير لقب الخديوى إلى السلطان، والنظارة إلى وزارة، بعد أن كانت الوزارة فى استانبول، والنظارة فى القاهرة. وقد خرج عن القاعدة اثنان من المتحضرين من ذوى الأصول العثمانية كنظار للخارجية هما بطرس باشا غالى ويوسف باشا وهبه[1]. وكانت الحكومة المصرية نفسها تحتج على بعض ممارسات قوى الاحتلال مما شجع على ظهور تيار وطنى من خارج السلطة فنشأت الحركة الوطنية المصرية من داخل السلطة ومن خارجها، مع السلطة وضدها.

كانت تركيا تعتبر نفسها صاحبة حق فى مصر. وقد رفض الوزير المفوض التركى فى مصر اعتباره مثل باقى الوزراء المفوضين مثل محمد على شوقى بك ومحى الدين باشا (١٩٢٦-١٩٣٢). كان الأول أحد الأعضاء الأوائل فى جمعية الاتحاد والترقى. وكان الثانى حفيد مختار باشى المندوب السامى التركى فى مصر قبل الحرب. فتركيا ليست دولة صاحبة امتيازات يمثل مواطنوها أمام المحاكم المختلطة بل هم مواطنون يمثلون أمام المحاكم الأهلية المصرية.

وأثناء الاحتلال ١٨٨٢-١٩١٤ سلبت بريطانيا وزارة الخارجية كثير من سلطاتها. ومع ذلك ظلت الوزارة هى الوسيلة التى تتعامل بها بريطانيا مع الدول الأجنبية. وفى الفترة بين الإلغاء والإعادة ١٩١٤-١٩٢٢ كانت الوزارة تمثل أهم مظاهر السيادة الوطنية على امتداد تاريخ مصر الحديثة. فمنذ بداياتها الأولى قبل

---

(١) يونان لبيب رزق: ص٣١/٥١/٦٧-٧٣.

الاحتلال تحت مختلفة الأسماء "ديوان أمور افرنكية" أو "نظارة خارجية" ظلت تتناقض أو تتزايد طبقاً لتقلص أو اتساع الاستقلال الوطنى.

فبعد نهاية فى ١٩١٨، اندلعت الثورة المصرية فى ١٩١٩، وكانت أحد مطالبها إعادة وزارة الخارجية. كانت الظروف تمهد لذلك مثل نهاية السيادة العثمانية على البلاد بهزيمة تركيا فى الحرب، وتنافس البلاد الإسلامية على خلافتها. وظلت بريطانيا تعارض ذلك نظراً لتناقض وزارة الخارجية مع منطق الحماية وإن وافقت بريطانيا على بعض مظاهر السيادة للخارجية المصرية فى أضيق الحدود حتى لا يحدث تناقض فى السياسة الدولية بين سيادة بريطانيا على مصر وسيادة مصر على نفسها، بالإضافة إلى خشية بريطانيا من ازدياد نفوذ مصر على الساحة الدولية لتحقيق طموحها فى زعامة العالم الإسلامى بعد سقوط الخلافة العثمانية، تنافس بريطانيا. وبعد فشل مفاوضات عدلى - كروزن، ونفى سعد زغلول إلى سيشل فى أواخر ١٩٢١ واجه الوجود البريطانى فى مصر معارضة قوية شبيهة بثورة ١٩١٩. وبتصريح ٢٨ فبراير انتهت الحماية البريطانية على مصر، واعترفت بها كدولة ذات سيادة وحرية تمثيل وزارة الخارجية المصرية فى الخارج تمثيلاً دبلوماسياً وقنصلياً[١].

وكان الاستثناء من السيادة الأجنبية على الخارجية المصرية تولى أحمد عرابى نظارة الجهادية والبحرية بين فبراير ويوليو ١٩٨٢، وتولى سعد زغلول نظارتى المعارف والحقانية بالتعاقب بين أكتوبر ١٩٠٦ وإبريل ١٩١٢ رغبة من بريطانيا فى استرضاء المصريين ولمواجهة النمو المطرد للحركة الوطنية.

وكان بعض الدبلوماسيين الأجانب فى القاهرة من "المشاغبين" لمواقفهم المعادية للسياسات البريطانية أو لأزماتهم مع السلطات المصرية مثل سفراء الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وتركيا والنمسا. فقد اصدر د. مورتون هاول وزير الولايات المتحدة الأمريكية بعد عامين من تركه القاهرة "مصر، الماضى والحاضر

---

(١) يونان لبيب رزق: ص٧٣-٨١، صليب باشا سامى ص١٧٢-١٧٣.

والمستقبل" وقال إن اللورد اللبنى صرح له أنه أراد شنق سعد زغلول وصحبه إلا أن حكومته لم تسمح بذلك. فقد كان هاول متعاطفاً مع الحركة الوطنية المصرية ومعادياً للوجود الاستعمارى البريطانى فيها[1]. وكما وقف السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مواجهة نابليون، وقف أحمد عرابى ناظر الجهادية فى مواجهة الخديوى توفيق.

أما القصر فقد أراد باستمرار السيطرة على الخارجية المصرية عندما أدرك قيمتها كرمز للسيادة الوطنية لدرجة توحيده وظيفياً بين الخارجية والديوان الملكى. ثم بدأ الملك باستبعاد العناصر المناوئة له فى وزارة الخارجية وإصدار أوامر ملكية بذلك خاصة عام ١٩٢٩ عندما أحيل كل من محمود سامى باشا الوزير المفوض فى واشنطون وصادق حنين باشا الوزير المفوض فى روما إلى الاستيداع. وكانت الحجة أن محمود سامى باشا فشل فى صنع مكانة له فى العاصمة الأمريكية، وأنه كان يقصد الغياب من العاصمة أثناء الاحتفالات الأعياد الرسمية المصرية لاختصار النفقات. واستمر القصر فى تعيين رجاله فى منصب المندوب فوق العادة أو الوزير المفوض[2].

ويروى عصمت عبد المجيد أن والده محمد فهمى عبد المجيد رئيس جمعية المواساة كان من نفس المدرسة الوطنية فى صراعها مع القصر تدعمها مقالات محمد حسين هيكل وطه حسين وفكرى اباظة. فعندما حضر الملك فاروق مسرحية "إنقاذ ما يمكن إنقاذه" لسليمان بك نجيب التى أقمتها جمعية أنصار التمثيل والسينما اعترض الأب على المجاملات التى كان يقدمها مدير المستشفى أحمد النقيب لرجال القصر. لذلك اختير لإلقاء كلمة الجمعية أمام الملك. فاستقال الأب لأن الجمعية للضعفاء والفقراء. فألغيت وظيفة وكيل عام مصلحة الجمارك التى كان يشغلها الأب وأحيل إلى المعاش. وبعد الثورة أحيل أحمد النقيب باشا إلى محكمة الثورة وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما[3].

---

(١) يونان لبيب رزق ص٤/٤٨/١٨٥-١٨٦.

(٢) المرجع السابق ص١٨٥-١٨٦.

(٣) عصمت عبد المجيد ص ١٤-٢٠.

وقد خرجت هذا النمط من الثقافة السياسية الوطنية من مدرسة الحقوق التى تأسست ١٩٠٨ والتى تأسس من خريجيها الحزب الوطنى ومن خريجى الجامعة المصرية التى تأسست فى ١٩٢٥ بعد ثورة ١٩١٩[١]. وما أنشئ من قنصليات عام ١٩٢٥ كان بمثابة الجسد الرئيسى للتمثيل القنصلى المصرى فى الخارج استكمالاً للاستقلال الوطنى ومظاهر السيادة. ومنه خرجت مدرسة الوطنية المصرية لمحمد صلاح الدين ومحمود فوزى وعصمت عبد المجيد. "طالما أن الغرباء هم الذين يملكون مقدرات هذا الوطن فسيظل أبناؤه يحيون فيه غرباء"[٢]. كان أساتذته حامد سلطان ووحيد رأفت من عمالقة القانون الدولى فى العصر الليبرالى. ورسالته "محكمة الغنائم، دراسة مقارنة" جعلته خبيراً فى العلاقات الدولية وفيما بعد رئيس اللجنة القومية لطابا. وشاهد سنوات التحول فى مصر من سيادة بريطانيا إلى الاستقلال الوطنى وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحرب الفدائيين فى القناة فى ١٩٥١. وكانت وزارة الخارجية قد أعدت ملفاً كاملاً لإلغاء المعاهدة برئاسة محمد صلاح الدين. فقد كانت الوزارة معقلاً من معاقل الوطنية المصرية والعربية. وكانت سلاحاً ماضياً من أسلحة مصر فى كفاحها الطويل من أجل الحرية والقيم الحقة والمثل العليا.

ولم تكن الحركة الوطنية المصرية بمعزل عن الحركة الوطنية العربية إذ تتجسد الليبرالية فى الوطنية والعروبة على حد سواء. فقد أنشأ نادى الاتحاد العربى فى ١٩٤٤ لترويج فكرة العروبة. وهو نفس العام الذى أسست فيه جامعة الدول العربية. وقد ساهم عصمت عبد المجيد فى نشاط "الحركة الوطنية لطلاب المغرب العربى" فى باريس مما جعله يكتشف حب المغاربة لمصر، واثبات الشخصية العربية الإسلامية لمصر التى تجسدت فى استقبال بطل الريف عبد الكريم الخطابى ماراً بقناة السويس. كما دعمت الحركة الوطنية المصرية تأميم مصدق للبترول فى ١٩٥٤. وهو نفس التيار الذى خرجت منه ثورة يوليو ١٩٥٢، واستمراراً لمعارك

---

(١) يونان لبيب رزق ص ١٥٤-١٧٩.

(٢) عصمت عبد المجيد ص ١٣-١٤/٣٨-٣٩/٦٨.

مصر الوطنية فى ١٩٥١ فى قناة السويس، وفى ١٩٥٦ معركة التأميم، وفى ١٩٥٨ دفاعاً عن استقلال لبنان ضد الغزو الأمريكى وتدعيماً للحركة الوطنية اللبنانية، دفاعاً عن استقلال الجزائر وثورة اليمن.

كما مثلت الطليعة الوفدية بداية التحول فى الحركة الوطنية المصرية من الليبرالية التى قادها الإقطاع وباشوات مصر إلى الفكر اليسارى الاشتراكى وضرورة الإصلاح الزراعى فى مصر. وكان عصمت عبد المجيد قد تعرف على معظم التيارات الفكرية اليسارية، الماركسية والاشتراكية أثناء دراسته فى باريس. وهى نفس البيئة التى تكون فيها عبد العزيز فهمى ومحمد مندور ومارسها مصطفى موسى.

وبعد انتهاء الحرب بدأت الحركات اليسارية داخل الوطن العربى تمثل إزعاجاً لبريطانيا متوهمة أنه بداية زحف سوفيتى على المنطقة على طريق المواصلات إلى الهند التى حصلت على استقلالها فى ١٩٤٧. واستمر التحول الوطنى إلى اليسار فى مصر بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، واتفاقية السودان فى ١٨٩٩، ووقوف مصر ضد مشروعات الدفاع عن الشرق الأوسط، ثم اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢، وسقوط الملكية واعتبرته حليفاً لها فى المطالبة بالاستقلال عن بريطانيا والمناصرة لهم فى الأمم المتحدة. فقد حل محمد كامل البندارى باشا فى ١٩٤٦/٣/٣٠ محل كامل بك عبد الرحيم فى موسكو. وجعل مهمته الاستفادة من مركز الاتحاج السوفيتى فى الميدان الدولى ضد الاستعمار البريطانى. وبعد فشل مفاوضات صدقى - بيفن فى نهاية ١٩٤٦ سنحت الفرصة لروسيا لتخفيف الضغط على الحركة الشيوعية على يد صدقى بأن وعدت بمساعدة مصر فى عرض طلبها على الأمم المتحدة. فخافت بريطانيا من تقوية الدعامة الشيوعية فى مصر. وهو التيار الذى استمر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ فى تكوين بعض الضباط الأحرار (يوسف صديق، خالد محى الدين)[1].

وبعد أن كانت الخارجية المصرية محصورة فى طبقة الأعيان والأقليات الأرمنية والتركية قبل إلغاء الوزارة وفرض الحماية فى ١٩١٤ اتسعت هذه الطبقة بعد

---

(١) د. صفاء شاكر ص ٢١٠/٢٤٣.

عودة الوزارة فى ١٩٢٢ وبعد ثورة ١٩١٩. وتم اختيار رجال السلك الدبلوماسى من موظفى الحكومة من مختلف الوزارات أو من الموظفين من خارج الحكومة أو من أصحاب المهن الحرة بل ومن صفوف العسكريين. وقد تم التوسع فى ذلك خاصة بين ١٩٢٢-١٩٢٦ حتى تم تكوين كوادر خاصة لوزارة الخارجية.

وتم تعيين عدد من الأئمة فى المفوضيات المصرية فى الدول الكبرى الأربعة، بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة عام ١٩٥٢[١]. إمام فى كل مفوضية لإمامة الصلاة. وهو تقليد منذ محمد على عندما أرسل الطهطاوى إماماً للبعثة التعليمية فى فرنسا عام ١٨٢٥. كان الهدف الحقيقى هو تنفيذ سياسة الملك الإسلامية بعد سقوط الخلافة فى ١٩٢٤ ومحاولة الملك فؤاد نقلها إلى القاهرة. وهى الفترة التى كتب فيها على عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" الصادر عام ١٩٢٥ للوقوف أمام رغبات الملك فى أن يصبح خليفة للمسلمين، والمناداة بفصل الدين عن الدولة، والنبوة عن الخلافة، والخلافة عن الإمامة، والإمامة عن الزعامة. كان الهدف من وجود هؤلاء الأئمة فى المفوضيات المصرية فى الخارج بث روح الولاء عند المصريين فى الخارج " لمولانا " الملك[٢].

تم تغير ولاء بعض هؤلاء الأئمة من الملك إلى الوطن، ومن القصر إلى الشعب مثل أمين الخولى صاحب مدرسة الأمناء والذى أصبح من كبار المجددين فى الفكر الاسلامى والنقد الأدبى بفضل اتصاله بالثقافة الغربية وجمعه بين القديم والجديد. ومما يدل على استخدام المصريين فى الخارج عن طريق موظفى الخارجية لطلب الولاء للقصر ما ذكره أمين الخولى من أن الطلبة فى برلين كانوا فريقين: الأول مع سعد، والثانى مع القصر. ولما طالب أحد الطلاب فى خطبة ترحيب أن ينهيها بشكر "مآثر مولانا" رفض الطالب بإباء لأنه ليس ملكياً. وقد حدث نفس الشىء لعبد الوهاب عزام الذى حصل فى لندن على الماجستير من

---

(١) وذلك مثل: الشيخ سعد عبد المجيد اللبان فى فرنسا، الشيخ محمد حلمى طمارة فى واشنجطن، الشيخ عبد الوهاب عزام فى لندن، الشيخ أمين الخولى فى روما.

(٢) يونان لبيب رزق ص ١٨٠-١٨٣.

مدرسة اللغات الشرقية ثم أصبح أستاذاً بكلية الآداب وعميداً لها. ثم عاد إلى السلك الدبلوماسي سفيراً لمصر لدى السعودية وباكستان. وقد عاد أغلب هؤلاء الأئمة إلى مصر عام ١٩٢٨ بعد فشل سياسة الملك فى استعمال الدين للسياسة وتلاشى آماله فى الخلافة، وجذب ولاء المصريين فى الخارج إلى القصر.

وقد انتهى ذلك بسقوط حسن نشأت والعهد الزيورى نفسه وقيام حكومة ائتلافية من الأحرار الدستوريين الذين حاربوا الفكرة ومن الوفد الذى كان غير راض عن سياسة الملك الدينية. إذ قدم سعد استقالته مرتين كرئيس وزارة بسبب خلافات بين الوزارة والقصر حول إصلاح الأزهر وتأليب الأزهريين ضد وزارة الشعب، وحول قضية الخلافة ورغبة فؤاد فى تنصيب نفسه خليفة للمسلمين[١].

وتبلغ ذروة الاستقلال الوطنى لمصر ودفاعها عن حركات التحرر الوطنى فى العالم وحق الشعوب فى تقرير المصير وحق الدول الصغرى فى المشاركة مع الدول الكبرى فى صياغة المواثيق الدولية فى مناقشات الوفد المصرى لصياغة مشروع ميثاق الأمم المتحدة. كان تمثيل مصر فى الأمم المتحدة من رجال وطنيين من الخارجية المصرية. حاول كل منهم التعبير عن شخصية مصر ودورها الوطنى فى المنظمات الدولية[٢].

كان أول تصريح دولى يمهد لمولد منظمة الأمم المتحدة "تصريح الأطلنطى" والذى صدر عنه "ميثاق الأطلنطى". وقد وقعت عليه مصر فى ١٩٤٣/١١/٢٧ لاتساق مبادئه مع السياسة الخارجية المصرية. كما وقعت مصر تصريح الأمم المتحدة أو تصريح واشنطون الصادر فى ١٩٤٣/١/١ وانضمت إليه فى ١٩٤٥/٢/٢٧ نظراً لظروف مصر أثناء الحرب وبعد موافقة مجلس الشيوخ وإعلان

---

(١) يونان لبيب رزق ص ١٦٠-١٦٢.

(٢) وهم: د. عبد الحميد بدوى، د. محمد حسين هيكل، أحمد محمد خشبة، محمد كامل عبد الرحيم، د. محمد صلاح الدين، أحمد فراج طايع، د. محمود فوزى. وقد تولوا كلهم منصب مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة باستثناء هيكل الذى كان رئيساً لمجلس الشيوخ. وقد عمل كلهم بالخارجية باستثناء هيكل ومحمد كامل عبد الرحيم، د. صفاء شاكر ص ١٦٥/١٤-١٧٨.

الحرب على ألمانيا واليابان تمهيداً لاشتراك مصر فى مؤتمر سان فرنسيسكو توطئة لإنشاء منظمة الأمم المتحدة والتى أرادت مصر أن تكون عضواً فيها لعرض قضيتها. وانعقد المؤتمر فى ١٩٤٥/٦/٢٦-٤/٢٥ باسم "مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولى" شاركت فيه خمسون دولة[١].

وبناء على مقترحات دمبرتون أوكس اقترح الوفد المصرى إجراء حوالى ثلاثة عشر تعديلاً دفاعاً عن الدول الصغرى واستقلالها الوطنى، رفضت الدول الكبرى معظمها وهى:

١- زيادة نص "وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولى" على نص "حفظ السلم والأمن الدولى" دفاعاً عن حق الدول الصغرى فى العدل.

٢- بالنسبة للأعضاء الأصليين والجدد اقترح الوفد المصرى أن يكون التنظيم عالمياً ممثلاً للدول الكبرى والصغرى عاجلاً أو آجلاً وحتى تحرر الدول الصغرى من سيطرة الدول الكبرى.

٣- بالنسبة للمعاهدات اقترح الوفد المصرى إعادة النظر فى المعاهدات طبقاً للظروف المتجددة حتى تتحرر الدول الصغرى من المعاهدات المجحفة التى عقدتها مع الدول الكبرى مثل معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر بل وضرورة إلغاء المعاهدات السابقة على الميثاق الجديد.

٤- بالنسبة لحق التصديق على قرارات مجلس الأمن اقترح الوفد المصرى الاكتفاء بحق الجمعية فى النظر فى تقارير المجلس ومناقشاتها وضرورة عرض التقارير على مجلس الجمعية العامة للمصادقة وهو أشبه بالبرلمان تفادياً لسيطرة أعضاء مجلس الأمن على الجمعية العامة.

---

(١) بعد أن تلقت مصر الدعوة لحضور المؤتمر شكل الملك وفد مصر من وزير الخارجية عبد الحميد بدوى رئيساً، وإبراهيم عبد الهادى وزير الصحة، ومحمود حسن وزير مصر المفوض فى واشنجطن. ومن الخبراء ممدوح رياض وطه السيد طه المستشار الملكى المساعد، ود. محمد عوض محمد الأستاذ بكلية الأداب، وعدلى أندراوس القاضى بالمحاكم المختلطة.

٥- بشأن انضمام فرنسا لمجلس الأمن اعترضت مصر نظراً لعدوانها على سوريا مما يكشف عن البعد العربى فى سياسة مصر الوطنية قبل ١٩٥٢.

٦- زيادة أعضاء مجلس الأمن إلى أربعة عشر عضواً من أجل إتاحة الفرصة لفوز مصر بعضويته للدفاع عن مصالح الشعوب. فقد كانت مصر تشعر بأنها دولة كبرى قائدة لحركات التحرر الوطنى حتى قبل ١٩٥٢.

٧- طلب مصر التمثيل الإقليمى بحيث يشمل مناطق العالم المختلفة من أجل حق دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وهى السياسة التى تحققت فى باندونج ١٩٥٥. وقد تم الأخذ بهذا الاقتراح.

٨- أن يكون التصويت فى مجلس الأمن بالأغلبية، ثمانية من أربعة عشر عضواً وليس بحق الفيتو من أجل رفع سيطرة الأعضاء الدائمين وهى الدول الكبرى. وهو ما تعانى منه المنظمة الدولية حتى الآن.

٩- عدم تعارض الميثاق الجديد مع المنظمات الإقليمية مثل جامعة الدول العربية.

١٠- زيادة أعضاء المجلس الاقتصادى والاجتماعى إلى أربعة وعشرين عضواً لتمثيل مناطق العالم.

١١- الاعتراض على لجنة الوصاية نظراً لما عانته مصر من السيطرة الأجنبية باسم الانتداب والحماية.

١٢- اقترحت مصر فى انتخاب مجلس الوصاية أن تكون الدول المنتخبة بنسبة الدول المعينة حتى تكون للدول الصغرى الأغلبية.

١٣- بالنسبة لمحكمة العدل الدولية طالبت مصر باتخاذ إجراءات ضد الدول التى ترفض التنفيذ[1].

---

(١) د. صفاء شاكر ص١٦٥-١٧٨.

ثالثا: الدوائر الثقافية للسياسة الخارجية.

هى الأطر الثقافية أو المجال الثقافى الذى تتحرك فيه الخارجية المصرية والذى يفرضه الوضع الجغرافى والتاريخى لمصر. وتسمى أيضاً الجانب "القيمى" فى السياسة الخارجية وهو الذى يحدد المبادئ والتوجهات والاختيارات العامة لهذه السياسة[١]. وهى الهوية الوطنية، العروبة كمحيط أوسع، الإسلام كمجال للعروبة، أفريقيا وآسيا، دول عدم الانحياز، العالم الثالث. وهى الدوائر الثقافية السياسية التى صاغتها مواثيق الثورة، الدوائر الثلاث التى وصفها عبد الناصر فى "فلسفة الثورة" حول مصر، الدائرة العربية والدائرة الأفريقية الأسيوية، والدائرة الإسلامية[٢]. ثم أضيفت إليها بعد باندونج ١٩٥٥ الدائرة الأوسع دول عدم الانحياز، العالم الثالث، القارات الثلاث، بين المعسكرين المتنازعين فى عصر الاستقطاب[٣].

ويراها البعض قد تطورت فى مراحل ست: الهوية الذاتية المصرية الموروثة من التاريخ، والتحرر منذ ١٩٢٠ من السيطرة العثمانية والتبعية التركية، والهوية العربية وتأكيدها منذ تأسيس الجامعة العربية فى ١٩٤٥، والهوية الاشتراكية التى أعلنتها قوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦٢-١٩٦٣، وهوية التضامن والوحدة الوطنية فى السبعينات، ثم الهوية الواقعية بعد حرب أكتوبر حتى الآن[٤]. وهو تقسيم يجمع بين تاريخ مصر قبل ١٩٥٢ وبعدها، يجعل الاختيارات السياسية وتحولاتها أساساً للهوية مع أن الهوية أعمق فى الشخصية الوطنية من السياسات الطارئة عليها.

---

(١) د. جهاد عودة ص ١٣٦-١٤٠.

(٢) محمود رياض: جـ٢/٢٨٩.

(٣) لم نشأ تحليل مواثيق الثورة فى الجمهوريات الثلاث، الأولى ١٩٥٢-١٩٧٠، والثانية ١٩٧٠-١٩٨١، والثالثة ١٩٨١-٢٠٠٠ (فلسفة الثورة، الميثاق، بيان ٣٠ مارس، ورقة أكتوبر، الاشتراكية الديمقراطية ...الخ) لأننا قمنا بذلك عدة مرات بتحليل خطب الرئيسين للجمهوريتين الأولى والثانية فى عديد من الدراسات السابقة مثل: الدين والتنمية القومية فى مصر. أثر العامل الدينى على توزيع الدخل القومى فى مصر، فى: "الدين والثورة فى مصر" (١٩٥٢-١٩٨١) جـ٤ الدين والتنمية القومية، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.

(٤) د. جهاد عودة ص ٢٣٣-٢٣٧.

فمصر هى مركز الدوائر الثلاث. لها هويتها المستقلة التى شقت طريقها فى العصر الحديث بين الهوية العثمانية التركية والهوية البريطانية الغربية والتى ورثت من عبق التاريخ الهوية المصرية القديمة[1]. استطاعت هذه الهوية الوطنية امتصاص كل الهويات التى طرأت عليها من غزوات التاريخ، الفارسية واليونانية والرومانية.

وقد مثلت هذه الهوية المستقلة الثقافة السياسية الوطنية قبل ١٩٥٢ وكما مثلتها الخارجية وحزب الأغلبية حزب الوفد والذى بلغ أوجه فى مقاومة الفدائيين فى القناة فى ١٩٥١ وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ والوقوف ضد سياسة الأحلاف قبل اندلاع الثورة وبعدها، حلف بغداد، والحلف المركزى، والحلف الاسلامى.

ويأخذ الصراع الثقافى حول الهوية رمز الصراع بين العمامة والقبعة والطربوش فى التمثيل الدبلوماسى المصرى فى الخارج كما تكشف عن ذلك ما أسمته الوثائق السرية "حادثة الطربوش"[2]. فقد مرت العلاقات المصرية التركية بعد عودة وزارة الخارجية فى ١٩٢٢-١٩٣٧ بتوتر ملحوظ. كان من نتائج الثورة الكمالية فى تركيا ضرورة خلع العمامة والطربوش ولبس القبعة رمزاً للحداثة، ونهاية "العثمانلى" فى حين استمر الطربوش رمزاً للمصريين خاصة لدى موظفى الحكومة خاصة فى المناسبات الرسمية فى تركيا. وفى إحدى المناسبات اصطدم الوزير المفوض المصرى عبد الملك حمزة بك عام ١٩٣٢ مع المسؤولين الأتراك فى حفل رسمى مما أدى إلى حدوث أزمة دبلوماسية انتهت باعتذار الوزير المفوض المصرى. وهو مازال سائداً فى تركيا حتى الآن فى معركة الحجاب فى الدوائر الرسمية التركية بين منع الدولة واختراق الأحزاب الإسلامية له.وهو ما يحدث الآن فى فرنسا المعاصرة خوفاً من ضياع الهوية الفرنسية، من الحجاب وليس من القبعة اليهودية "جمولكا"[3].

---

(١) محمود رياض جـ١/٣٠.

(٢) وهو الصراع الذى جسده أيضاً أسامة أنور عكاشة فى "ليالى الحلمية".

(٣) يونان لبيب رزق ص١٨٦.

وتأكدت عروبة مصر فى تاريخها الحديث منذ محمد على وإبراهيم فى الشام والسودان وشبه الجزيرة العربية وئاماً أم صراعاً، اتفاقاً أم خلافاً، وحدة أم انفصالاً، وفى التجربتين الرئيسيتين فى مصر المعاصرة، التجربة الليبرالية الغربية والتجربة القومية الاشتراكية.

فعندما استكملت مصر شخصيتها الدولية، ودخلت عصبة الأمم بعد معاهدة ١٩٣٦ أظهر واصف باشا وزير الخارجية آنذاك عروبة مصر فى دفاعها عن القضية الفلسطينية فى رئاسته وفد مصر فى عصبة الأمم ضد تقسيم فلسطين الذى تقترحه بريطانيا لأن التقسيم يتنافى مع حقوق العرب الطبيعية المقدسة، ويناقض العهد الذى عقدته بريطانيا مع الشريف حسين فى بداية الحرب. كما أن وعد بلفور غير ملزم لبريطانيا لرفض العرب له، ولا يحل القضية الفلسطينية ولا المشكلة اليهودية فى العالم بل يخلق دويلات مصطنعة غير قابلة للحياة على أساس دينى طائفى من جنسيات متعددة، وهو ما يناقض مفهوم الدولة الوطنية. كما أن الرأى العام الاسلامى والمسيحى يرفض أن تقع الأراضى المقدسة فى أيدى غير العرب، بالإضافة إلى أن خلق كيان صهيونى يهدد أمن مصر القومى.واقترحت مصر أن تعقد معاهدة بين بريطانيا وفلسطين تكفل استقلالها مثل معاهدات بريطانيا مع باقى الدول العربية. وتضمن للأقلية اليهودية مصالحها، وتحدد نسبة الهجرة اليهودية وحق اليهود فى امتلاك الأراضى. ويدل ذلك على عروبة مصر المبكرة وتنسيقها مع الوفد العراقى فى عرض القضية الفلسطينية، وإحساساً بأمن مصر القومى، والخطر عليها من مدخلها الشرقى، وقدرتها على مخالفة بريطانيا. وكانت هذه سياسة ثابتة لمصر، لا تتغير بتغير رؤساء الوزارات أو وزراء الخارجية. فبعد سقوط الوزارة الوفدية فى ١٩٣٧ وتعيين وزارة جديدة برئاسة محمد محمود لم تتغير سياسة مصر تجاه القضية الفلسطينية. فقد ألقى عبد الفتاح باشا يحيى وزير الخارجية الجديد فى الدورة الأخيرة لعصبة الأمم عام ١٩٣٨ بخطاب يعبر عن نفس الموقف وتأييده بحجج جديدة فيما يتعلق بالطابع التوسعى للدولة المزمع إنشاؤها، وأنه لا يمكن حل مشكلة اليهود فى العالم بخلق مشكلة أخرى، طرد شعب فلسطين من

ديـاره، واغتصـاب أرضـه قبـل أن تنهار العصبة عـام ١٩٣٩، بدايـة الحـرب العالميـة الثانية[١].

ويـرى عصـمت عبـد المجيـد أن دوره كـوزير للخارجيـة هـو تكـريس البعـد القومى فى الدبلوماسية المصرية الذى لا يعكس فقط الهوية العربية وانتمائها بقدر مـا يعكـس أمنهـا القـومى ومصـالحها الاسـتراتيجية والتوافـق العربـى. ومصـر أصـل الحضارة عرفت الدبلوماسية من أقدم العصور وقادرة على التمسك بثوابتها[٢].

ويمثل موضوع إسرائيل أحد المؤشرات العامة على التيار الوطنى فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية قبل الثورة وبعدها. فعندما بحث مجلس الأمن طلب إسرائيل العضوية فى هيئة الأمم المتحدة امتنعت المملكة المتحدة عن التصويت فى حين أيدته الدول الأربع الكبرى الأخرى (أمريكا، روسيا، فرنسا، الصين) فتوفرت السبعة أصوات اللازمة. واحتج الوفد المصرى بأن القرار غير قانونى نظراً لعدم توفر شرط موافقة الأعضاء الخمسة الدائمين. ومع ذلك صدر قرار الجمعية العامة فى ١٩٤٩ بقبول إسرائيل عضواً فى المنظمة[٣]. وعندما قدمت إسرائيل شكوى ضد مصر لفرضها قيوداً على الملاحة فى قناة السويس بعد احتلال إسرائيل قرية أم الرشرش فى مارس ١٩٤٩ والتى أصبحت فيما بعد ميناء ايلات على خليج العقبة اتفقت مصر على دخول القوات السعودية فى أوائل ١٩٥٠ جزيرتى تيران وصنافير فى مدخل خليج العقبة فأصبح الممر داخلاً فى المياه الإقليمية العربية، سعودية أم مصرية. ومن ثم يكون لمصر حق تفتيش السفن العابرة كى لا تحمل أسلحة إلى إسرائيل بالرغم من اعتراض إسرائيل بتوقيع اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٩ وإنهاء حالة الحرب. وحدث نفس الشىء بالنسبة للناقلات البريطانية المحملة بالبترول إلى إسرائيل.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٣-٢٢٦.

(٢) عصمت عبد المجيد ص ٢٤٢/٢٧٠.

(٣) د. صفاء شاكر ص ١٩٢-١٩٦/٢٠١، محمود رياض جـ١/٥٣/٢٥.

واستمر الحال كذلك طوال الثورة المصرية على مدى نصف قرن ومازال. بل إن التحقيق فى الأسلحة الفاسدة أثناء حرب فلسطين فى ١٩٤٨ كان من أحد أسباب اندلاع الثورة فى ١٩٥٢ كما أعلن ذلك البيان الأول للثورة. واستمرت إسرائيل تهدد الأمن القومى المصرى منذ الغارة على غزة فى ١٩٥٥.وقد دخلت مصر أربعة حروب دفاعاً عن أمنها القومى فى فلسطين فى ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣. وكانت محاولات إسرائيل تحويل روافد نهر الأردن السبب الأول لسياسة مؤتمرات القمة العربية فى ١٩٦٤. وبدل أن كانت بريطانيا نموذج دولة الاحتلال أصبحت إسرائيل تقوم بدورها وبريطانيا خلفها.

وبالرغم مما حدث فى الجمهورية الثانية من صلح منفرد بين مصر وإسرائيل منذ اتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ واتفاقية السلام فى ١٩٧٩ إلا أن الجمهورية الثالثة عادت لكى تؤكد الثوابت فى تاريخ مصر الحديث قبل الثورة وبعدها. وانضمت الدبلوماسية المصرية إلى الدبلوماسية الفلسطينية للدفاع عن وجهة النظر الفلسطينية فى مواجهة المفاوض الإسرائيلى إيماناً بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير. ورفضت كل تجمعات إقليمية بديلة تكون إسرائيل طرفاً منها مثل المتوسطية والشرق أوسطية والمحادثات المتعددة الأطراف. وكان عبد الناصر هو الذى قدم ياسر عرفات إلى موسكو مصطحباً إياه فى زيارته عام ١٩٦٨[١].

ولا يعنى العداء لإسرائيل أي عداء لليهودية أو أى نزعة معادية للسامية بل العداء للطابع العنصرى التوسعى وللاحتلال الاستيطانى للكيان الصهيونى. بل إن اليهود كانوا يطبعون على أوراق النقد المصرية أثناء الحرب عبارات تدعو إلى مقاطعة البضائع الألمانية[٢]. فاليهودى المصرى مصرى، واليهودى الأمريكى يهودى. رابطة الوطن هى التى تربط المصريين وليس الطائفة ورابطة الطائفة هى التى تربط

---

(١) عمرو موسى جـ١/٣٤-٣٦، صفاء شاكر ص ٨، محمود رياض جـ١/١٧٦.

(٢) صليب باشا سامى ص ١٧٦.

يهود العالم[1].

واستمر المد القومى العربى على نحو رومانسى عاطفى فى الجمهورية الأولى، وانحسر فى الثانية، وعاد بعقل واتزان فى الثالثة. بل إن كل ما حدث من ثورات عربية إنما كان نتيجة لارتباط مصر بالعروبة ونضالها من أجل قضايا العرب. فثورة ١٩٥٢ إنما هى رد فعل على هزيمة العرب فى فلسطين فى ١٩٤٨. والعدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ إنما كان نتيجة لتأييد مصر لثورة الجزائر وتسليح جيش التحرير الوطنى. وثورة العراق فى ١٩٥٨ إنما كانت رد فعل على العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦. والوحدة المصرية السورية، تجربة الجمهورية العربية المتحدة، أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث ١٩٥٨-١٩٦١ إنما كانت حماية لسوريا من الوقوع فى المعسكر الشرقى والفلك السوفيتى. وثورة اليمن فى ١٩٦٤ إنما كانت رد فعل على الانفصال فى ١٩٦١، وأعلنت المساواة بين الطوائف وإلغاء الرق، والقضاء على التفرقة بين الزيود والشوافع ومنعت الاحتفاظ بالرهائن. والثورة الليبية فى ١٩٦٩ إنما كانت رد فعل على هزيمة ١٩٦٧.

لقد تأثر رئيس الجمهورية الأولى بدخول الأردن فى معركة ١٩٦٧ فضاعت منه الضفة. وتوفى بعد مذابح أيلول الأسود إنقاذاً للثورة الفلسطينية. وأجل الصراع بين الدول العربية التقدمية والدول الرجعية إلى ما بعد إزالة آثار العدوان.

وظهر التضامن العربى فى الجمهورية الثانية أثناء حرب أكتوبر التى أعدت لها الجمهورية الأولى. وأرسلت قوات عربية من العراق والمغرب والسودان والكويت وتونس والجزائر وليبيا. وكاد الأردن يدخل الحرب بمجرد وصول الجيش إلى

---

(١) يحكى محمود رياض فى مذكراته أنه أثناء خروجه من الأمم المتحدة جاءه شاب يصافحه متحدثاً باللغة العربية وتبين أنه يهودى أخرجه رجال الأمن فى مصر مهاجراً إلى أمريكا ويريد العودة إلى مصر لأنه مصرى وعبد الناصر رئيسه وليس ليفى أشكول. وهو أحد ضحايا السياسة وليس الدين. وحين دخل الفندق وجد أرثر جولدبرج المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة حياه يهودى أمريكى وشكره على تأييده لإسرائيل. وهنرى كسنجر اليهودى كان يخدم مصالح إسرائيل قبل مصالح الولايات المتحدة، محمود رياض جـ١/١٣٣-١٣٧/١٧١.

المضايق فى سيناء. وتم حظر النفط وهو يدخل لأول مرة كسلاح استراتيجى فى المعركة.

وفى الجمهورية الثالثة بدأ رأب الصدع لما حدث من تفكك عربى بعد زيارة رئيس الجمهورية الثانية للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ وبعد غزو العراق للكويت فى أغسطس ١٩٩٠ ونشط وزراء الخارجية فى المصالحة السودانية ورفع الحصار عن الشعب العراقى وليبيا وتحقيق المصالحة بين السلطة الوطنية الفلسطينية وسوريا وانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان والدعوة إلى تطبيق قرارات الشرعية الدولية على كل الجبهات العربية.

ونظراً لأن الإطار الاسلامى لم يكن ضمن الدوائر الثقافية الثلاث للثورة المصرية لظروف تكوين الضباط الأحرار فى عدة روافد ثقافية وطنية فى الغالب وماركسية وإسلامية فى الطرفين وللصراع بين الإخوان والثورة منذ ١٩٥٤ وللخوف من مبدأ تصدير الثورة بعد اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران فى ١٩٧٩ وبعد اشتداد الحركات الأصولية منذ مقتل رئيس الجمهورية الثانية فى ١٩٨١ واستمرار قرار حل الإخوان فى ١٩٥٤ ورفض إقامة أى حزب أو تنظيم إسلامى جديد حتى ولو قبل النظام الديمقراطى ونبذ العنف، كان التمثيل الإسلامى فى مصر ضعيفاً باستثناء تمثيل تركيا وإيران ثم أفغانستان. فكان ممثل تركيا يرفض أن يعامل مثل معاملة باقى الدبلوماسيين للتاريخ المشترك والمصاهرة بين العائلتين المالكتين. وكان ممثلها يطلب المزيد من الأولوية فى البروتوكول. وأيدت مصر انضمام تركيا عضواً فى مجلس الأمن عام ١٩٥٠ مقابل تأييد تركيا لمصر فى عضوية المجلس الاقتصادى الاجتماعى. وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ كان السفير التركى مرتبطاً بالأسرة المالكة المصرية فتحفظ تجاه الثورة ووصف مصر بأنها بلد قذر، وأقام حفلاً لم يدع إليه واحداً من المصريين فطلبت مصر من تركيا استدعائه ثم طرده عبد الناصر.

وكانت صورة ممثل أفغانستان فى ١٩٣٩ أنه تقليدى ومتعصب ورجعى بعكس ممثل السعودية الذى كان أقل تعصباً للوهابين. وظلت مصر فى علاقة طيبة

بين باكستان وأفغانستان فى صراعهما على نجتوشتان ووقفت على الحياد. كما دافعت مصر عن استقلال إندونيسيا فى مجلس الأمن مما دعى بريطانيا إلى اتهام وفد مصر بأنه عدو لانجلترا. وكان الوفد المصرى قد رفض سحب طلب النظر فى المشكلة الإندونيسية برئاسة عبد الحميد بدوى باشا[1].

أما بالنسبة لإيران فقد بدأ التمثيل الشرقى فى مصر مقتصراً على فارس قبيل إعلان الاستقلال. ثم زاد ليضم أفغانستان والعراق. أما تمثيل أوربا الشرقية فكان بسبب تركيا مما يدل على غياب سياسة شرقية لمصر باستثناء الإسلام والمصاهرة والعلاقات التاريخية بالرغم من استياء الدبلوماسيين من الذهاب إلى إيران التى لا يصل مستوى الحياة فيها إلى مستوى ترف التمثيل فى أوربا[2] وبالرغم من أن وزير خارجية إيران كان وثيق الصلة بالحكومة الأمريكية أيام الشاه إلا أنه كان ينصح الخارجية المصرية بالرغم من عداء الجمهورية الأولى له. ومازالت الخارجية المصرية حتى الآن تولى موضوع الجزر فى الخليج أهمية خاصة من أجل تسوية سلمية لها تعيدها إلى الإمارات العربية المتحدة. إن حسن الجوار بين إيران وأشقائها العرب يقتضى منها حل مشكلة الجزر العربية فى الخليج كمبادرة طيبة. تجمع بين إيران والعالم العربى وشائج تاريخية معروفة تقتضى تسوية مشكلة الجزر العربية واحترام سيادة دولة الإمارات العربية المتحدة تحقيقاً للاستقرار وإسهاماً فى الدفع نحو علاقات عربية إيرانية سوية[3]. إن إيران دولة شقيقة وليست دولة عدوة. تختلف مصر والعرب مع سياستها. هى دولة على تخوم العالم العربى فى الشرق الأوسط بالمعنى الواسع. فهى جزء من الأمن الإقليمى مع مصر؛ ولكنها خارج الأمن العربى لأنها مثل تركيا ليست من الأمة العربية. وهى نظرة ضيقة للقومية

---

(١) صفاء شاكر ص ١٩١/٣٠٩-٣١٠/١٨٠-١٨١.

(٢) يونان لبيب رزق ص ١٤٦-١٤٧/١٧٨.

(٣) محمود رياض جـ١/٣٤٢ وأيضاً عمرو موسى، خطاب فى الدورة العامة للأمم المتحدة ١٩٩٦/٩/٢٤ جـ٣/٦٧. التحولات فى المنطقة العربية الإسلامية، عمرو موسى جـ٤/١١٦/٨٦، مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام ١٩٩٤/١١/٣. خطاب فى الدورة الخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٩٥/١٠/٣ عمرو موسى جـ٣/٨٧.

العربية تقصرها على العرق ولا تمدها إلى الثقافة[1].

وبالرغم من الصراع بين الإخوان والثورة فى الجمهورية الأولى، والتناقض بين الجماعة الإسلامية والجمهورية الثانية بعد كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام فى ١٩٧٩ بعد أن استعملها النظام السياسى منذ أوائل السبعينيات ضد خصومه السياسيين المشتركين، الناصريين والماركسيين والوفد بتهمة القومية والإلحاد والعلمانية، ونقلاب الجماعة عليه، وتصفية رئيس النظام فى أكتوبر ١٩٨١، واستمرار الخلاف بين الحركة الإسلامية ممثلة فى جماعة الجهاد والجمهورية الثالثة إلا أن الصحوة الإسلامية التى أصبحت موضوعاً للصحافة العالمية والمنظمات الدولية. ركزت الخارجية المصرية فى الجمهورية الثالثة على الظاهرة الإسلامية دفاعاً عن الإسلام حضارة وعلماً وحواراً، وسلاماً وتسامحاً، وقيماً وأخلاقاً.

فصراع الحضارات غريب على الإسلام، ونموذجه لقاء الحضارات. فقد التقت الحضارة الإسلامية القديمة مع الحضارات السابقة عليها يونانية ورومانية غرباً، وفارسية وهندية شرقاً ولم تصارعها بل تفاعلت معها. وفلاسفة الإسلام مثل الفارابى وابن سينا وابن رشد وابن خلدون نماذج على ذلك فى نموذج إنسانى واحد يقوم على العقل والعلم. وقد كان الإسلام النموذج الحضارى وراء النهضة الغربية فى العصور الحديثة، "ولو أنهم آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات السماء والأرض"[2].

والإسلام دين العلم والتقنية قبل الحضارة الغربية. فقد بدأ الوحى الكريم بسورة "اقرأ". وفصّل القرآن العظيم عملية الخلق تفصيلاً دقيقاً. وتحدثت آيات الذكر الحكيم عن الشمس والقمر وأسرار الكون. فتح القرآن أبواب الفكر والعلم على الأرض وفى البحر والجو والفضاء، ولكن المسلمين لم يبنوا عليها كما ينبغى، ولم

---

(١) عمرو موسى: خطاب أمام مجلس الشورى ١٩٩٤/٣/٢٣ جـ١/٤٦.

(٢) عمرو موسى جـ٤/١٣٧-١٣٨/٣٦ القمة الاستثنائية فى إسلام أباد ١٩٩٧/٣/٢٣ الجلسة الختامية للمؤتمر الدولى للسكان والتنمية، القاهرة ١٩٩٤/٩/١٣ جـ٤/٧٢، المناقشة العامة للجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها التاسعة والأربعين، نيويورك ١٩٩٤/٩/٣٠ جـ٤/٧٧.

يطلقوا عقال فكرهم. واكتفوا بترديد أمجاد الأولية والإعجاب بمنجزات الآخرين. ولما كان الإسلام دين الأمس واليوم والغد وليس دين الأمس فقط كان من الضرورى صياغة إطار فكرى إسلامى يستشرق آفاق المستقبل، ويستند إلى كتاب الله وسنة النبى إلى صحيح الدين وثرى الفكر إلى عمق العلم ومنطق الأمور. فالدين ليس سبباً للتخلف. ونموذج الإسلام العلم بنص الكتاب ﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغى أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون﴾. والحضارة الغربية حضارة علم مثل الحضارة الإسلامية وتالية لها. فالإسلام ليس عدواً للحضارة ولا هو عدو للغرب، ولا الغرب عدو له بعد سقوط الشيوعية يؤدى إلى حرق بيوت الأتراك فى ألمانيا واشتعال حروب صليبية جديدة. إن الإسلام يعترف بتعدد الثقافات ووحدة الحضارة الإنسانية. فالتباين الثقافى ليس سلباً بل إيجاباً. ومن هنا أتت ضرورة احترام الديانات السماوية والتصرف فى نطاقها وما تنادى به من فضائل من أجل تنظيم الحياة على الأرض وفى موضوع المرأة وقضية الإجهاض يتم الالتزام بنصوص الشريعة الإسلامية والقانون.

ويأخذ موضوع العنف والإرهاب جزءاً هاماً من خطب وبيانات وزير الخارجية فى الجمهورية الثالثة فهو الموضوع المثار على الصعيد العالمى وبنفس طريقة المؤسسة الدينية للوعظ الداخلى. فقد آثار جورباتشوف موضوع الأصولية الإسلامية فى أفغانستان والعوامل التى تقف وراء هذه الظاهرة، وأبدى تخوفه من مخاطر انتشارها فى بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتى. فأكد له وزير الخارجية آنذاك أن الإسلام دين تسامح، لا يعرف التطرف، وأن الحركات الأصولية ذات طبيعة سياسية فى ظروف معينة[1].

ويستمر وزراء الخارجية فى هذا الخطاب الدينى الرسمى فى المناسبات الدينية خاصة المؤتمرات الإسلامية، مع بيان أن الإرهاب ظاهرة عامة لدى كل

---

(١) عصمت عبد المجيد ص ٢٢٤.

الشعوب وليس خاصاً بمنطقة جغرافية بعينها أو بثقافة دون غيرها. فليس من الحكمة ربط الإسلام بالتطرف وإظهاره باعتباره مرادفاً له. الإسلام كعقيدة دين سمح يقدر قيمة الإنسان، والإرهاب من جماعات متطرفة منحرفة ضالة تتخفى تحت عباءة الدين. فمن الأكاذيب على الإسلام ربطه بالعنف والتعصب وبيان تعارضه مع المدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان. ويستشهد بعديد من آيات القرآن والإنجيل مثل "بارك الله فى صانعى السلام". ومن ثم يجب تصحيح صورة الإسلام على المستوى العالمى دون استغلال الدين الحنيف لتحقيق مصالح فئة تشوه صورته أو أن يقف آخرون منه موقف العداء[1].

والإرهاب لا يتوجه فقط إلى الخارج بل إلى الداخل أيضاً فى صيغة قتل الأبرياء مما يشوه صورة الإسلام فى الخارج. والطرح الصحيح لتعاليم الإسلام لمواجهة تحديات العالم الإسلامى هو بيان صورة الإسلام فى أعين العالم بتحديات العالم الإسلامى من داخله، وضحاياه المسلمون. والإسلام يطالب بالحوار والجدل بالحسنى ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾. ويدعو إلى الاخوة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. ويحرم إزهاق الروح ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾، ويدعو إلى السلام "إن الله يدعو إلى دار السلام". والبداية من الداخل قبل الخارج ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. فى أفغانستان يقتل المسلمون بعضهم بعضاً وكذلك فى الصومال ودون الإشارة إلى الجزائر، والشريعة منهم براء. ولا حل أمام الدول الإسلامية إلا حل الخلافات بينهم سلماً بمزيد من التنسيق والتعاون على حسن الجوار والتاريخ المشترك. "فهل تستطيع الأمة الإسلامية مواجهة التحديات؟"[2].

---

(١) عمرو موسى: الدورة الخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٩٥/١٠/٣ جـ٩٢/٣. العشاء السنوى لمؤتمر برلين الصحفى، برلين ١٩٩٧/١٢/١٧ جـ١٥٥/٤. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٩٥/١١/١٢ جـ١٢٧/٣.

(٢) عمرو موسى جـ٣٦/٤-٣٧. الدورة الثانية لمؤتمر القمة الإسلامى، دورة عزة وحوار ومشاركة، طهران ١٩٩٩/١٢/٩.

ويدخل وزراء الخارجية فى الجمهورية الثالثة الإسلام فى موضوع القدس. الأول يدافع عن رئيس الجمهورية الثانية فى زيارته للقدس ويعتبر أن عدم خروج مظاهرات فى المساجد يوم الجمعة التالية للزيارة مؤشراً على قبول الناس لها "اليوم الخميس، وغداً الجمعة وستكون صلاة الجمعة فى المساجد المصرية المقياس الدقيق لرد فعل الرأي العام المصرى. لو حدث شئ بعد الصلاة ضد هذه الخطوة يكون السادات على خطأ. ولو مرت صلاة الجمعة بسلام يكون الرأى العام فى مصر غير رافض للسلام". وهو مؤشر غير صحيح لأن الناس كانوا تحت تأثير الصدمة وفى نشوة ليلة العرس خاصة وأن الاحتفالية جزء من سلوكه اليومى. وبعد أن أفاق تظاهر من أجل القدس. كما حمل المصلون رئيس الجمهورية الأولى على الأعناق فى الأزهر أثناء العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ وهو يخطب "سنقاتل، كتب علينا القتال ولم يكتب علينا الاستسلام". والثانى يعتبر القدس قلب العالم الاسلامى وأن تحريرها واجب شرعى بنص القرآن ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز﴾[1].

إذا كانت فلسفة الثورة فى الجمهورية الأولى هى التى نظرت للدوائر الثقافية الثلاث للتحرك المصرى فإن مبادئ الثورة الستة: القضاء على الاستعمار، القضاء على الإقطاع، القضاء على رأس المال، العدالة الاجتماعية، تكوين جيش قوى، وتأسيس حياة ديمقراطية سليمة قد فتحت الباب إلى الالتحام بقضايا العالم الثالث، وما عرف فى الستينات باسم عدم الانحياز، والحياد الإيجابى، ودول القارات الثلاث فقد أدت ثقافة الاستقلال الوطنى إلى حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مع ربط الاستقلال بالتقدم، والتحرر بالعدالة الاجتماعية. فقد بدأت حركة عدم الانحياز من باندونج فى ١٩٥٥ إلى بلجراد فى ١٩٦١ إلى القاهرة فى

---

(١) عصمت عبد المجيد ص ١٥١. عمرو موسى جـ٤/١٣٧-١٣٨.

١٩٦٤. وكان تيتو من الناصحين لمصر عبر نضالها الوطنى الطويل خاصة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ سواء بضرورة الحل الشامل وليس المنفرد، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وبطبيعة العلاقة مع الاتحاد السوفيتى، صديق فى الخارج عدو فى الداخل[١].

وبدأت حركات التحرر فى أفريقيا بمساعدة مصر، وفتحت لها مكاتب وفروع فى القاهرة. وكانت من مؤسسى "منظمة الوحدة الأفريقية" حتى أنشأت مصر أخيراً دول "الكوميسا" مع أفريقيا فى يونيو ١٩٩٨ ومجموعة الخمسة عشر مع أفريقيا وآسيا. وكانت أفريقيا ظهيراً لمصر فى معركتها ضد الصهيونية قبل أن تعترف مصر بالكيان الصهيونى وتتبعها الدول الأفريقية[٢].

واستطاعت مصر التعامل مع المعسكرين الشرقى والغربى فى عصر الحرب الباردة. كانت الثورة فى بدايتها اقرب إلى التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية ثم تحولت تدريجياً إلى العداوة لها وبداية الصداقة مع الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية والصين بعد أن سحبت أمريكا عرضها لتمويل السد العالى ومحاولات إدخال المنطقة فى عديد من الأحلاف، حلف بغداد أو الحلف الاسلامى. وإذا كانت أمريكا قد وقفت ضد العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ فإن ذلك كان من أجل وراثة النفوذ التقليدى لبريطانيا وفرنسا فى العالم العربى، وتؤيد إسرائيل ربيبة أمريكا على عدوان ١٩٦٧ وفى كل مباحثات السلام. وقد اضطرت مصر إلى مزيد من التعاون مع الاتحاد السوفيتى فى التصنيع منذ توريد صفقات السلاح فى ١٩٥٥ واستمرار المد بالسلاح بعد عدوان ١٩٥٦ وبعد عدوان ١٩٦٧ وأثناء حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٧٠، حرب الثلاث سنوات حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ قبل أن تبدأ الجمهورية الثانية بالتحول عن الاتحاد السوفيتى، وقفة مع الصديق، وتنويع مصادر السلاح، واعتبار أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا، وإلغاء الإرادة

---

(١) محمود رياض جـ١/١٨/٣٣٢ جـ٢/٩١.

(٢) وذلك تصديقاً للشاعر العربى:

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً ∴ فشيمة أهل البيت كلهم الرقص.

الوطنية المستقلة والتوازن الدولى[1].

ومن الإنجازات الكبرى فى السياسة الخارجية المصرية فى منتصف السبعينات إقامة علاقات وثيقة مع دول أوربا الغربية وإقناعها بضرورة إقامة دور نشط فى عملية السلام فى الشرق الأوسط وان تقدم اقتراحاتها الخاصة بدلاً من احتكار أمريكا لمشاريع السلام وإطلاق يدها فى المنطقة. وكانت البداية بفرنسا فى عهد ديجول الذى أدان العدوان الاسرائيلى حتى شيراك[2].

رابعا: الدوائر السياسية للخارجية المصرية.

وتعنى الدوائر السياسية مجالات التحرك للخارجية المصرية وتفاعلها مع باقى مؤسسات الدولة تناغماً كما هو الحال فى الجمهوريتين الأولى والثالثة أو تنافراً كما هو الحال فى الجمهورية الثانية. فالخارجية لا تعمل بمفردها. إنما هى جهاز تنفيذى للسياسات التى يصنعها الرئيس، أعلى سلطة تنفيذية فى البلاد. لذلك يمكن التفرقة بين الثوابت الدائمة فى الثقافة السياسية والمنافع العاجلة للرياسة. فإذا اتفقت مؤسسات السياسة الخارجية خاصة الرياسة والخارجية على الثوابت حدث وفاق بين الرياسة والخارجية وهو الأغلب فى الجمهوريتين الأولى والثالثة. وإذا اختلفتا أصبحت الخارجية هى الممثلة للثوابت والرياسة هى المدافعة عن المنافع العاجلة، وهو الأغلب فى الجمهورية الثانية. فالرياسة والخارجية هما أهم عنصرين فاعلين فى رسم السياسة الخارجية تخطيطاً وتنفيذاً.

ثالثاً هناك أيضاً المؤسسة العسكرية التى تقوم بتدعيم الثوابت فى الثقافة السياسية للخارجية والرياسة فى آن واحد طبقاً للدستور وكحق شرعى من مكتسبات ثورة يوليو ١٩٥٢. الجيش هو الحارس على مصالح الشعب ومكاسبه الاشتراكية. هو المسئول أولاً وأخيراً عن قرارات الرياسة فى النصر وفى الهزيمة، فى

---

(١) محمود رياض جـ١/٢٩/٣١/٥٧/٦٨/١٨٦.

(٢) إسماعيل فهمى ص١٧٩-١٨٤.

الحرب وفى السلم. هو المسئول عن هزيمة ١٩٤٨ وعدوان ١٩٥٦ وهزيمة ١٩٦٧. كما أنه يرجع إليه الفضل فى التوجه إلى قصر عابدين بقيادة ناظر الجهادية أحمد عرابى فى ١٨٨٢ دفاعاً عن حقوق الشعب والثوابت الوطنية. وهو الذى قاد حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٧٠. وهو الذى انتصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعد ضغوطه على الرياسة لاسترداد كرامة الجيش والوطن، فإذا ما حدث صراع بين الرياسة والجيش كما حدث فى انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ كسبت الرياسة نظراً لأن الرئيس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، ونظراً لما يعرف عن الجيش بعدم تدخله فى السياسة تدخلاً مباشراً بالرغم من ازدياد الأثر العسكرى فى الحياة المصرية بعد الثورة.

رابعاً هناك الرأى العام الممثل فى مظاهرات الطلاب والانتفاضات الشعبية مثل مارس ١٩٦٨ ضد ما يسمى بأحكام الطيران ومظاهرات ميدان التحرير واعتصام الطلاب فى ١٩٧١-١٩٧٢ التى عجلت بحرب أكتوبر بعد أن كان معداً لها عام ١٩٧١ عام الحسم، والانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ التى عجلت بزيارة القدس فى نوفمبر من نفس العام لإيجاد أحلاف خارجية للنظام فى إسرائيل وأمريكا بعد أن فقد شرعيته الداخلية بسبب التحول عن الخط الاشتراكى إلى الانفتاح، ومظاهرات الطلاب ضد العدوان الأمريكى على العراق فى يناير ١٩٩١ وتكرار العدوان فى ١٩٩٨، وحرق المسجد الأقصى، وضرب المفاعل النووى العراقى، وخطف الطائرة المصرية، وغزو جنوب لبنان وحصار بيروت ولتأييد الانتفاضتين، الأولى والثانية.

خامساً هناك المؤسسات الدستورية مثل الأحزاب، الحزب الحاكم أو أحزاب المعارضة، ومجلسا الشعب والشورى، والقضاء. وهى الدائرة الأقل تأثير وتفاعلاً من دوائر السياسة الخارجية لمصر.

وهناك ثلاثة نماذج فى علاقة الرياسة بالخارجية. الأول الاتفاق بين الاثنين نظرياً وعملياً كما كان الحال فى الجمهورية الأولى. والثانى الاختلاف والتعارض بل والتناقض بين الرياسة والخارجية وهو ما كان سائداً فى الجمهورية الثانية خاصة

بعد زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧، مما أدى إلى استقالة ثلاث وزراء للخارجية. والثالث التكامل التناغم والتوافق والترشيد والتشاور والتنوع بين الرياسة والخارجية فى الجمهورية الثالثة يجمع بين الاتفاق والاختلاف دون التماهى المطلق أو التناقض المدمر.

١- الرياسة. وهى المؤسسة المركزية الأولى التى تتم فيها صياغة السياسات الخارجية المصرية، ثوابتها ومتغيراتها سواء بالاشتراك مع باقى أجهزة التخطيط فى الدولة ومراكز إصدار القرار كما هو الحال فى الجمهوريتين الأولى والثالثة أو على انفراد ودون استشارة كما هو الحال فى الجمهورية الثانية منذ زيارة القدس والصلح المنفرد مع إسرائيل. فمصر نظام سياسى ودولة مركزية، يحكمها الاستبداد الشرقى، نموذج محمد على وعبد الناصر فى مصر الحديثة حتى لقد أطلق رئيس الجمهورية الثانية على نفسه لقب "آخر فراعنة مصر". ولم تكتف زوجته بلقب السيدة الأولى بل أضافت "ملكة مصر" أو "كيلوباترا " فى أحلام اليقظة[1]. الرياسة هى التى ترسم السياسات الخارجية أولاً نظراً لما يتمتع به النظام الرياسى فى مصر من سلطات. والوزارة مسئولة أمام الرئيس وليست أمام البرلمان. السياسة الخارجية هى التى يضعها الرئيس، والخارجية هى المنفذة لها مثل باقى الوزارات ومؤسسات الدولة.

كانت الرياسة والخارجية فى تآلف وتناغم فى الجمهورية الأولى. تحكمهما معاً الثوابت فى الثقافة السياسية المصرية. وعلى الرغم مما يقال عنها من تسلط رياسى إلا أن الرياسة كانت تستشير فى قراراتها الحاسمة مثل تأميم القناة، والوحدة المصرية السورية، ومساندة الثورة اليمنية، وحرب ١٩٦٧عندما أخبره وزير الدفاع أنه جاهز للمعركة فى العبارة الشهيرة "برقبتى يا ريس"، وفى تجاوز الصراع الأردنى الفلسطينى فى أزمة أيلول الأسود.

---

(١) وقد ذكر القرآن مصر فى خمس آيات أنها بلد الاستقرار والسكن، وبلد الأمان، وبلد الكرم والسخاء، وبلد الزرع والنماء، وفى الخامسة بلد الطغيان "ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون". الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢-١٩٨١، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩ جـ٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى ص١٦٨-١٧٠.

كانت الرياسة فى الجمهورية الأولى تستشير الخارجية، ووزير الخارجية يستشير لجان التخطيط والإدارات القانونية. فقد طلب محمود رياض من لجنة التخطيط بالخارجية إعداد دراسة عن الوعود الأمريكية خلال أربع سنوات قبل قبول الرياسة مبادرة روجرز وكيف أنها لم تنفذ. كما طلب الوزير أثناء اجتماعه بجروميكو من الإدارة القانونية بالخارجية دراسة عاجلة عن معاهدات الصداقة التى عقدتها مصر مع دول العالم وكيف أنها مجرد عموميات ولا توجد آليات لتنفيذها. كان عبد الناصر يستشير وزير الخارجية فى الرسائل التى كانت ترسلها إليه الولايات المتحدة الأمريكية. واستمرار ضخ البترول بعد ١٩٦٧ كان باتفاق الرئيس ووزير الخارجية من أجل التنمية والتسليح. وفى السنوات الأولى للجمهورية الثانية استمرت سياسة التشاور بين الرياسة والخارجية. فقد طلب الرئيس من وزير الخارجية رياض إعداد البيان السياسى عند وفاة عبد الناصر لمناقشته[1]. وكانت هناك ضغوط شديدة على عبد الناصر لقبول صلح منفرد مع إسرائيل وكان يقول دائماً: ليست المشكلة سيناء التى يمكن استردادها فى أربع وعشرين ساعة بل فى الضفة الغربية والقطاع ومرتفعات الجولان.

وفى الجمهورية الثانية بدأ الخلاف بين الرياسة وباقى مؤسسات الدولة مثل الخارجية والجيش والحزب والرأى العام. وربما تم اختيار الرئيس لنائبه نظراً لأنه لا يمثل شيئاً ولا رأياً، اختيار النقيض للنقيض. وربما عرف عنه الرئيس الراحل علاقته بالغرب وأنه قادر على الاستمرار فى مبادرة روجرز. بدأ الخلاف فى انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ حيث قضت الرياسة على الجيش والحزب والإعلام. واستمر قبل حرب أكتوبر وأثنائها وبعدها، أهداف الحرب التحرير كما تريدها الخارجية والجيش والحزب والرأى العام أم التحريك كما تريدها أمريكا والرياسة، ومعها فى تغيير خطة العبور والتوقف قبل المضايق وعبور إحدى الفرق الاحتياطية فبقى ظهر الجيش الثالث مكشوفاً، والصلح المنفرد، والتوجه نحو الغرب.

---

(١) محمود رياض جـ١/٢٩٢/٣٤٥/٣٦٠ جـ٢/١١٦-١٦٧/٣٠١/٣١٥/٣١٩.

وإذا كان الاختيار السياسى أو الأيديولوجية السياسية هى التى جمعت بين الرياسة والخارجية فى الجمهورية الأولى فإن العامل الشخصى فى الرياسة ودفاع الخارجية عن الثوابت فى الثقافة السياسية المصرية هى التى أدت إلى الصراع بينهما لدرجة القطيعة واستقالة ثلاث وزراء للخارجية وإقالة رئيس الأركان. ولا يقتصر دور العامل الشخصى على الرئيس وحده بل أيضاً فى الوزير. ولا يقتصر على مصر وحدها بل فى عديد من الدول الأخرى مثل شخصية كارتر، وشخصية كسنجر وشخصية بيجين. ولا يعنى ذلك رد الثقافة السياسية للرياسة إلى عامل واحد، شخصية الرئيس بل هناك الأيديولوجية السياسية التى يتبناها صراحة أو ضمناً، علناً أو سراً، والواقع السياسى المتغير الذى يعيش فيه. والمعروف أن الرئيس لم يكن ذا ثقافة عميقة. فكره يتحدد بشخصه. ولا تتجاوز ثقافة أفلام رعاة البقر والروايات البوليسية. فحقوق الإنسان لديه عندما يقبض الشريف على المجرم فيذكره المجرم بحقوقه[1].

ويمكن التعرف على سبعة مفاتيح فى شخصية الرئيس فى الجمهورية الثانية هى أحد الأسباب الرئيسية كما أدركها وزراء الخارجية فى وقوع التناقض بين الرياسة والخارجية:

أ- الفردية. وهى وراء الانفراد بالقرارات فى الحرب والسلم دون استشارة الخارجية أو أحد من معاونيه. فقد توقف الرئيس عن الاتصال بالخارجية (رياض) ووزارة الدفاع (فوزى). كانت له قناعاته الخاصة غير قناعات عبد الناصر "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة". وبدأ يناقش قناعاته مع الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة بعيداً عن الوزراء المختصين. ولم يناقش موضوع إلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية مع أحد إلا مع إسماعيل فهمى بعد أن شعر أنه يريد أيضاً "وقفة مع الصديق". ولم يخطر وزير الخارجية رياض بمبادرة فتح قناة السويس قبل إعلانها فى حين أخطر وزير الخارجية روجرز باستعداده لقبول الحل الجزئى

---

(١) محمد إبراهيم كامل ص١٩٥.

المؤقت مما أحدث تعارضاً بين الخارجية والرياسة شعرت به أمريكا على الفور ولعب كسنجر عليها. وفى اللقاء الصاخب بين الرئيس ووزير خارجيته محمد إبراهيم كامل قبل الاستقالة قال الرئيس: لقد استمعت إليك كما رأيت دون مقاطعة حتى لا يقول أحد أننى لم استمع ولا أقرأ كما يشيعون عنى. ولكن أعلم أن كل ما قلته لى قد دخل من أذنى اليمنى وخرج من أذنى اليسرى. إنكم فى وزارة الخارجية تظنون أنكم تفهمون فى السياسة ولكنكم لا تفهمون شيئاً على الإطلاق. ولن أعير كلامكم أو مذكراتكم أى التفات بعد ذلك. إننى رجل أعمل وفقاً لاستراتيجية عليا لا تستطيعون إدراكها فى فهمها. ولست فى حاجة إلى تقاريركم السوفسطائية الهائفة. إن الوزير يسب أمامى اليوم الرئيس كارتر وهو الكارت الرئيسى الذى أحوزه لإقامة السلام الشامل. إن محمد حسنين هيكل قريبك يهاجمنى فى كل مكان ويتآمر على لقلب نظام الحكم. وأنا لا أبالى بما ينشره من أكاذيب وسخافات بدافع الحقد الأسود. ولن أسكت عليه فى النهاية، وسأقطع رقبته. تفضل الآن بالانصراف. ولا تعودوا لتتعبوا رأسى وتضيعوا وقتى بأسانيدكم القانونية الفارغة. يظننى وزير الخارجية أننى أهبل. سأوقع على أى شئ يقترحه الرئيس الأمريكى كارتر دون أن أقرأه[1]. تجاوز الدبلوماسية وقال لوزير خارجيته "أنت فاكر نفسك دبلوماسى ياسى محمد"؟ وقد تصل الفردية إلى حد النرجسية. فقد كان الرئيس مشغوفاً بالطعام، يعتبر نفسه أشيك رجل فى العالم. يكتب البحث عن الذات، والسيرة الذاتية نرجسية أدبية، الذات تحول نفسها إلى موضوع هو نفسه ذات. فهو إما لا يفهم أو يفهم ويدعى أنه لم يفهم أو لا يستوعب أو يركز على ذاته ولا يستمع للآخرين.

وقد شعر كسنجر بهذه الخاصية فلعب لعبته لحسابه وحساب إسرائيل وبطريقته ودون إخطار الخارجية الأمريكية، والاتصال بالرئيس مباشرة. وتآمر كسنجر فى الاتصال بصديقه السادات مباشرة وطبع القبلات العربية شاعراً بحرج لأنه يهودى يتناول الصراع العربى الإسرائيلى. لذلك كان يعلن أنه يهودى ولكنه غير

---

(١) محمود رياض جـ٢/٣٥٦-٣٥٧ جـ١/٣٢٨/٣٧٢، إسماعيل فهمى ص٢٦١، محمد إبراهيم كامل ص٦٠٨/٥٧٥/٥٨١/١٧٢.

صهيونى. وكل اتصالاته بالرئيس مباشرة كانت لخدمة مصالح الكيان الصهيونى. كانت الاتصالات مباشرة على مستوى الرؤساء وزراء الخارجية أو مع المخابرات المركزية الأمريكية. فألغى وزارة الخارجية، وطلب من أمريكا نفس الشىء للانفراد بالرأى دون مستشاريه.

لا يقرأ التقارير ويرى أن قراءة التقارير هى السبب فى موت عبد الناصر. وهو الذى أمر بعملية اقتحام قبرص بعد عملية اغتيال يوسف السباعى وفقدان ثمانية عشر ضابطاً مصرياً والطائرة تقليداً لعملية عنتيبى التى قامت بها إسرائيل لإنقاذ الرهائن. لم يفكر فى منظمة التحرير كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى وأراد التفاوض نيابة عنهم.

ب- البطولة. وهى سمة طبيعية للفردية خاصة وأنها رد فعل على بطولة رئيس الجمهورية الأولى، غيرة منه وتشبهاً به. حارب بروح عبد الناصر، وانهزم بروحه. فقد كان الخوف من الحرب فى عظامه كما صرح صديقه كسنجر[1]. كما صرح جوزيف سيسكو انه يريد أن يجعل من السادات بطلاً. يلعب دور الرجل الكبير الذى يرسم الاستراتيجيات الكبرى ولا يشغل نفسه بالتفاصيل. يتطلع إلى الماضى والمستقبل دون أن ينظر إلى الحاضر. يريد أن يدخل التاريخ وأن يدخل وزير خارجيته معه. تخطى المؤسسات كلها، وتحولت الفردية إلى بطولة تشبهاً بعبد الناصر. بل أنه هو الذى كون الضباط الأحرار وكان عبد الناصر من أعضاء خليته. استهوته شخصيات أحمد عرابى ومصطفى كمال أتاتورك وأنور باشا الذى سمى على اسمه وهتلر.

جـ- التمثيل. وكما تؤدى الفردية إلى البطولة تحتاج البطولة إلى تأليف وتمثيل وإخراج وإبداع فنى وإثارة الخيال وجذب الأنظار، والحبكة المسرحية، والعقدة والحل. كان يخترع قصصاً ويمطها حتى تصبح بعيدة عن الحقيقة اعتماداً

---

(١) إسماعيل فهمى ص٢٩، محمود رياض جـ١/٣٧٣-٣٧٧ جـ٢/٤٠٨/٤٤٧، محمد إبراهيم كامل ص٤٣/٥١/٤٣٥/١٦/١٩٩-٢١٠/١٣٣.

على المناسبة أو المستمعين خاصة بالنسبة لرحلة القدس خشية أن يقال كيف تمت بالفعل ومدى التنازلات فيها. فالخيال أرحب من الواقع، والشعر أقرب إلى القلب من السياسة، مع أن الحقائق حقائق، ولا يمكن حفظها سراً إلى الأبد. وكان من ضمن حركات المثل حزم الحقائب وتجهيز الطائرة والتهديد بالعودة إلى مصر من كامب ديفيد. كان يريد خلق وجود درامى باستمرار وإعطائه أهمية غير عادية، والقيام بعمل دعائى مثير بدافع الرغبة فى الشهرة وتعظيم الذات. ويربط اسمه بالقدس كما ارتبط اسم صلاح الدين. ومن ضمن التمثيل فى أوائل عهده حرق الأشرطة وهدم المعتقلات أمام عدسات المصورين وهو صاحب مذبحة سبتمبر ١٩٨١ التى وضع فيها مصر كلها فى السجون. وكان قد بدأ حياته راغباً فى التمثيل. وقد هتف أثناء محاكماته الأولى فى قضية أمين عثمان بهتافات وطنية كنوع من التمثيل. عرف كسنجر فيه حب القصص واختلاق الخيال فقام بذلك على لسانه يلفق القصص عن نواياه تجاه الرؤساء العرب. فهو زعيم العالم العربى كى يثير حقد فيصل عليه. فاحتقره فيصل، وسماه "بتاى" اليهودى. وكما يحتاج التمثيل إلى إخراج فإنه يحتاج أيضاً إلى مكان. فجعل مباحثات فك الاشتباك الأولى فى أسوان التى يؤثرها جوها الساحر فى المفاوضين. والزبيبة والعصا والجلباب من مستلزمات شيخ البلد وكبير العائلة الرئيس المؤمن الذى يبدأ اسمه بمحمد. والزى العسكرى والمشية النازية الأخيرة كانت آخر ما ودع به العالم فى ٦ أكتوبر ١٩٨١[1].

د- الإعلام. ولما كان التمثيل فى حاجة إلى نظّارة وليس إلى نظارة أو وزارة ساد الجانب الاعلامى. فقد كان القصد من زيارة القدس الإعلام، وإثارة الرأى العام، "وإيقاظ الشعب المصرى"، والاحتفال بليلة العرس. كان يبحث عن حدث إعلامى ضخم. تصورها وزير الخارجية أسلوب إنشائياً وعبارة بلاغية أو مثلاً شعبياً، أن الإنسان مستعد للذهاب إلى آخر العالم لتحقيق مطلبه أي إلى أقصى حد ممكن مثل "اطلبوا العلم ولو فى الصين" أو "على جثتى" التى تفوه بها أسامة الباز وكيل أول

(١) إسماعيل فهمى ص١٣/٤٣/١٢٣، محمد إبراهيم كامل ص٤٩١/٢٣/٩٥/١٩.

وزارة الخارجية "لن أذهب إلى القدس إلا جثة هامدة". لم يعترض وزير الخارجية حين سماع العبارة فى خطاب الرئيس فى مجلس الشعب على جوهر الزيارة بل على طريقة إخراجها. وكان يفضل الزيارة إلى مجلس الأمن أمام الأعضاء الخمسة الدائمين. وكأنت صدمة الرئيس عندما لم يقابل الكيان الصهيونى خيالاً بخيال، تمثيلاً بتمثيل، بطولة ببطولة "لأنهم ليسوا بالمستوى الذهنى ليفهموا أو يتفهموا هذه التحركات". وقد طلب حسن التهامى صاحب ثقافة الجن والعفاريت ومخاطبة والأرواح والأولياء رفيقه فى كامب ديفيد أن تنسحب إسرائيل من ميل مربع واحد من القدس يرفع عليه علم عربى أو إسلامى ويعين عليه حاكماً.

ويأخذ الإعلام طابعاً احتفالياً وأداء مسرحياً وهو ما يسمى بسياسة الصدمات الكهربائية وراء التحول من الحليف السوفيتى التقليدى، وقفة مع الصديق إلى كون ٩٩٪ من أوراق اللعبة، مع ضرورة كسر الحاجز النفسى. وهذا هو السبب فى الإسراع باحتفالات النصر، وفتح قناة السويس، والانسحاب إلى خط العريش رأس محمد، وأن حرب أكتوبر آخر الحروب قبل تحرير طابا وباقى الأراضى العربية المحتلة.

وقع فى غرام نفسه صوتاً وصورة. يدلى بأحاديث صحفية كهواية مفضلة، ويحب ألقاب بطل الحرب والسلام. ويقابل الأدباء والفنانين، اليزابيث تيلور وخوليو ايجلسياس المغنى الجزائرى اليهودى الأصل، وأندريكو ماسياس الذى غنى له بطل السلام. ويدعو عِلية القوم على سفح الهرم، ويقابل ولى عهد بريطانيا وزوجته الجميلة، ويوصيها بطاعة زوجها كما يفعل الفلاح الطيب[1].

هـ- الكذب. ولا يعنى الكذب هنا أي قدح بمعنى عدم قول الصدق بل هو نتيجة طبيعية للخيال. فمبادرة فتح قناة السويس والانسحاب الجزئى بضعة كيلومترات شرق القناة فكرة موشى ديان نسبها الرئيس إلى نفسه. فقد أبلغ وزير الخارجية رياض الرئيس بعد زيارته لعواصم أوربا أن أوربا لا ترى مبادرة فتح قناة

(١) إسماعيل فهمى ص٣٨٦-٣٩٢/٤١٥، محمد إبراهيم كامل ص٥٦٥/٤١٥/١٩٤.

السويس أكثر من اتفاق جزئى حول القناة وليس حلاً شاملاً لسيناء أو لكل الأراضى المحتلة. فغضب الرئيس من تخاذل أمريكا فى تأييد مبادرته[1].

وزيارة القدس ليست وحياً هبط إلى الرئيس من السماء وهو فى الطائرة من بوخارست إلى طهران بل اتفاق مسبق بينه وبين إسرائيل على الاتصال المباشر وهى غاية إسرائيل الكبرى وبعد تدبير الملك حسن الثانى للقاء بين حسن التهامى وموشى ديان فى المغرب لإعداد الزيارة. فقد استجاب السادات إلى دعوة بيجين لإقامة اتصالات مباشرة معه فى المغرب. ففى نفس الوقت الذى ذهب فيه وزير الخارجية المصرية لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة كان ديان فى طريقه إلى نيويورك وواشنطون ثم اختفى فى بلجيكا على نحو غامض، واجتمع بحسن التهامى مبعوث الرئيس فى المغرب ولم يبلغ الرئيس وزير خارجيته بذلك. ولم تكن المرة الأولى التى يخفى عنه بل أنه لم يخبر صديقه كارتر. كما تم تدبير الزيارة مع شاوشسكو فى رومانيا بعد قياس فلسطين على الخارطة بمسطرة أو بشبر فهكذا تتحدد مصائر الشعوب. وناقش الرئيس فكرة الزيارة فى ضيافة "سينا" برومانيا. وكان إلغاء معاهدة الصداقة مع السوفييت ايحاء من كسنجر ولم تأت إلى الرئيس الملهم وحياً.

كما قال الرئيس أن روجرز أخبره بضرورة إخراج الروس من مصر ومن المنطقة العربية كلها قبل أي تسوية شاملة. وهو غير صحيح لأن الرئيس هو الذى توهم أن الروس يكرهونه، وأنهم يفضلون عليه على صبرى. وربما كان هذا التحول كله ليس نابعاً من ذاته بل من ندوة الأهرام التى عبر فيها وزير الخارجية إسماعيل فهمى عن هذه الآراء التى نسبها الرئيس إلى نفسه. إلا أن وزير الخارجية ترك الرئيس فى منتصف الطريق يغرق بمفرده ولم يستطع أن يسير معه إلى آخر الشوط كما فعلت الحركة الإسلامية معه نفس الشىء منذ إخراج أعضائها من السجون

---

(١) محمود رياض جـ١/٣١٧/٣٤٢ جـ٢/٣٩١، محمود إبراهيم كامل ص٤١٨، إسماعيل فهمى ص١١/٣٢٨/٣٦٠/٣٧٥/٣٧٧/٣٨١-٣٨٢/٣٨٤-٣٨٥/٢٠٨.

لاستعمالهم ضد الناصريين فى أوائل السبعينات ثم الانقلاب عليه بعد كامب ديفيد وتركوه فى منتصف الطريق يموت وحده.

و- المقامرة. طالما أن الرياسة تتنازل عن الثوابت فى الثقافة السياسية المصرية لم يبق لها إلا المتغيرات التى تقوم على المقامرة والمراوغة والتقلب. لم يكن الرئيس ذا رأى ثابت يستطيع المحافظة على اتجاه طوال الوقت بل كان من السهل على الآخرين أن يجعلوه يغير رأيه. وقد رفض وزير خارجيته إسماعيل فهمى أحياناً تنفيذ بعض تعليماته. كان يتظاهر بقبول وجهة نظر الوزير[1]. وفى الوقت الذى كان يعقد فيه مجلس الدفاع العربى ليعد للمعركة، ومهمة يارنج فى الأمم المتحدة على أشدها، والإعداد لمؤتمر جنيف متواصل، يواصل الرئيس اتصالاته بكسنجر بعيداً عن المؤسسات المصرية. فأرسلت له أمريكا صغار موظفى الخارجية للاتصال به بعد أن اكتشفوا فيه رغبة فى تفادى الحرب. وقد أخفى عن العواصم العربية اتصالاته وعدم مشاوراته مع القيادات السياسية فى الداخل. وقد رويت نكتة شهيرة فى أول عهد الرئيس تكشف عن هذه السمة فى شخصيته المراوغة والمقامرة والتمويه، أنه كان يشير بالعلامة الضوئية لسيارته يساراً وينحرف يميناً.

ويصف وزير الخارجية إسماعيل فهمى الرئيس بأنه نادراً ما كان يتصرف بوحى مبادرة شخصية منه حيث كان يتخذ قرارات يعتبرها الوزير غير متبصرة. ومع ذلك استطاع وزير الخارجية أن يعيد السياسة الخارجية المصرية إلى الطريق الصحيح، ثوابتها فى الثقافة السياسية. وكان ذلك ممكناً حتى سفره إلى القدس. ثم كان الحل الوحيد لإنقاذ الثوابت فى الثقافة السياسية المصرية هو الاستقالة دفاعاً عن الكرامة. كما أن فكرة مد إسرائيل مياه النيل عبر سيناء ليست وحياً من فوق الهضبة من أجل التآخى بين ديانات إبراهيم الثلاث فى المعبد المزمع إنشاؤه بل فكرة قديمة معروفة فى تخطيط المدن وتعمير سيناء.

---

(١) إسماعيل فهمى ص١٥٩، محمود رياض جـ٢/٤٠٥/٦٣ جـ١/٣٦٨.

ز- الازدواجية. وليست هى عيب أخلاقى بل الجمع بين طرفى نقيض. وربما كان كل العظماء مزدوجى الشخصية. وتعنى الازدواجية إظهار شئ وإضمار شئ آخر. ينحنى أمام تمثال الرئيس الراحل وهو ينوى الانحراف عنه. وينعاه "كنت أتمنى ألا أعيش لهذه الساعة أبداً. كنت أتمنى أن يكون جمال عبد الناصر هو الذى ينعينى". ويصفه وزير خارجيته إسماعيل فهمى أنه كان منعزلاً أقرب إلى الصمت ربما خوفاً من شخصية رئيس الجمهورية الأولى أو إضمار العداء له أو الغيرة منه. وهو فى نفس الوقت إعلامى يهوى الأحاديث الصحفية والاحتفاليات. سحب جواز سفر وجنسية زوجة السفير تحسين بشير التى كانت تعد رسالة عن الشرق الأوسط، وزارت إسرائيل قبل أن يزور هو إسرائيل بشهرين. وهو الرئيس المؤمن "محمد" يقرأ القرآن ويستشهد به فى أقواله وخطبه خاصة تلك التى تطلب المغفرة بسبب الخطأ والنسيان، وهو فى نفس الوقت أمريكى حتى النخاع. وفى حياته الخاصة صعيدى أسمر فلاح من ريف مصر وزوجته من أصل بريطانى بيضاء البشرة، يشعر أمامها بالفخر والارتياح. أصبح الرئيس سجيناً لأساليبه وشخصيته المزدوجة إرضاء لذاته. يقتنع بالوقفة مع الصديق ويعقد معه معاهدة صداقة. يتعامل مع بيجين مباشرة ويلقاه، وفى كل مرة يُهان ويتحمل الصلف والتعصب. خيانة فى ثوب وطنى أو وطنية فى ثوب خيانة، معادلة صعبة واشتباه. لذلك رد إليه بعض المثقفين والباحثين المشابهين له اعتباره، من خائن إلى بطل. يريد تحرير الضفة ويسميها جودياً وسمارياً كما يفعل بيجين. يدعوه ضيفاً عليه ويتحمل منه الوقاحة فى الإعلان أن جدوده بناة الأهرام فى حفل التوقيع فى كامب ديفيد. ويهزأ بالرئيس ومن حركاته التمثيلية بالمغادرة وحزم الأحقبة والعودة إلى القاهرة.

ومن ثم تنتهى ربما أسوأ رياسة فى تاريخ مصر، السادات وصديقه كسنجر ١٩٧٣-١٩٨١، انهيار أمة وانتحار شخص[1].

٢- الخارجية. وهى الذراع الأيمن للرياسة فى الممارسة السياسية وأداتها التنفيذية. يرسمها الوزير والأجهزة المختصة بعد توجيهات الرياسة. وتضم أيضاً

(١) إسماعيل فهمى ص١٣/٢٧/٤١، محمد إبراهيم كامل ص١٩٤/٤٩/٦٤١.

ممثليها فى الهيئات الدولية بالإضافة إلى قناصلها ومفوضيها وسفرائها فى الخارج. وقد زاد عدد البعثات الدبلوماسية من ستين بعثة عام ١٩٥٤ إلى الضعف عام ١٩٨٢ نظراً لاستقلال الدول الأفريقية. وهى التى تعبر عن الثوابت فى السياسة المصرية بصرف النظر عن تقلبات الرياسة، وبناء على وضعها الجغرافى ومسارها التاريخى وبعدها الحضارى وإمكانياتها المادية والبشرية وتجاربها السياسية.

وطبقاً لمنطق العلاقات هناك بنية ثلاثية فى علاقة الخارجية بالرياسة:

أ- الاتفاق التام كما هو الحال فى الجمهورية الأولى (١٩٥٢-١٩٧٠) محمود وزى، محمود رياض = عبد الناصر.

ب- الاختلاف التام كما هو الحال فى الجمهورية الثانية (١٩٧٠-١٩٨١)، إسماعيل فهمى، محمد إبراهيم كامل = السادات.

جـ- التنسيق والتكامل كما هو الحال فى الجمهورية الثالثة (١٩٨١-٢٠٠٠) عصمت عبد المجيد، عمرو موسى = مبارك.

وهناك وزراء خارجية يعملون على التخوم بين جمهوريتين من أجل تحقيق التواصل بيم المراحل، البعض أقرب إلى المرحلة السابقة ثقافة وفترة، الاتفاق (محمود رياض ١٩٦٤-١٩٧٢) ولم يستطيعوا الاستمرار فى المرحلة التالية الاختلاف، والبعض الآخر أقرب إلى المرحلة اللاحقة، التكامل ثقافة وفترة (كمال حسن على ١٩٨٠-١٩٨٤) وإن كان إلى مرحلة التكامل أقرب ولأن الجمهورية الثالثة أرادت أن تبدأ بداية جديدة. وتنهى التجربة المؤلمة للجمهورية الثانية. ولا يوجد وزير خارجية أو مندوب لها فى الهيئات الدولية إلا وله موقف وينتسب إلى هذه النماذج الثلاثة مثل عصمت عبد المجيد من الدبلوماسيين، وبطرس غالى من الأكاديميين، وحسن كمال على من العسكريين[1].

وفى النموذجين الأول، الاتفاق، والثالث، التكامل يستقر وزراء الخارجية فترات طويلة، ولا يتغيرون كثيراً، ويقل عددهم. فى حين أنه فى نموذج الاختلاف

---

(١) جهاد عودة ص ١٨٥/٤٤/٣٤٣.

يتغير وزراء الخارجية، ويستمرون فترات قصيرة، ويزداد عددهم. ففى نموذج الاتفاق فى الجمهورية الأولى وبعد استتباب الأمر واستقرار الثورة فى عامها الأول الذى كان فيه وزيران للخارجية على ماهر باشا (شهران) أحمد محمود فراج طابع (ثلاثة أشهر) ولم يعين إلا وزيران محمود فوزى (اثنا عشر عاماً)، محمود رياض (ثمانية أعوام). ولما كان محمد فوزى أطول وزير خارجية فى تاريخ مصر الحديث، وشغل محمود رياض الوزارة فى جمهوريتين، الأولى (ست سنوات)، والثانية (سنتان) يمكن القول بأن الجمهورية الأولى كان لها وزير خارجية واحد، محمود فوزى[1].

وفى نموذج الاختلاف فى الجمهورية الثانية والذى وصل إلى حد التعارض والتناقض تبدل على وزارة الخارجية ستة وزراء ظل كل من الوزيرين الأولين فى منصبه أقل من عام (محمد مراد غالب، محمد حسن الزيات)، واستقال الثالث بعد أربعة أعوام (إسماعيل فهمى)، والرابع بعد أقل من عام، بين زيارة القدس واتفاقية السلام (محمد إبراهيم كامل)، والخامس (مصطفى خليل) والسادس (كمال حسن على) كل منهما ما يربو على العام مع استمرار السادس كعنصر تواصل فى الجمهورية الثالثة ثلاثة أعوام. ولم تتجاوز مدة أطول وزير فى الجمهورية الثانية أكثر من أربعة سنوات (إسماعيل فهمى)[2].

---

(١) وزراء الخارجية فى الجمهورية الأولى:

أ- على ماهر باشا ١٩٥٢/٧/٢٤-١٩٥٢/٩/٧.

ب- أحمد محمود فراج طابع ١٩٥٢/٩/٨-١٩٥٢/١٢/٩.

جـ- محمود فوزى ١٩٥٢/١٢/٩-١٩٦٤/١٢/١٤.

د- محمود رياض ١٩٦٤/٣/٢٥-١٩٧٢/١/١٧. جهاد عودة ص٣١.

(٢) وزراء الخارجية فى الجمهورية الثانية:

أ-محمد مراد غالب ١٩٧٢/٢/١٧-١٩٧٢/٩/٨.

ب- محمد حسن الزيات ١٩٧٢/٩/٨-١٩٧٣/١٠/٣١.

جـ- إسماعيل فهمى ١٩٧٣/١٠/٣١-١٩٧٧/١١/١٧.

د- محمد إبراهيم كامل ١٩٧٧/١٢/٢٥-١٩٧٨/٩/١٧.

هـ- مصطفى خليل ١٩٧٩/٢/٢٧-١٩٨٠/٥/١٤.

و- كمال حسن على ١٩٨٠/٥/١٤-١٩٨٤/٧/١٦.

لم يستطع وزيران من الجمهورية الأولى الاستمرار فى أول الجمهورية الثانية. واستقال وزيران (ساداتى وناصرى) فى ذروة الجمهورية الثانية. ولم يعمّر وزيران فى نهايتها (مدنى وعسكرى) وقد تولى الرئيس بنفسه الوزارة مرتين أثناء كامب ديفيد واتفاقية السلام فقد كان هو الرئيس والوزير فى آن واحد[1].

وفى نموذج التكامل والتنسيق فى الجمهورية الثالثة لم يعين إلا وزيران (أحمد عصمت عبد المجيد، عمرو موسى). وعمر كل منهما مدة طويلة، عمرو موسى (عشر سنوات) وأحمد عصمت عبد المجيد (سبع سنوات)[2]. وهما يعادلان محمود فوزى ومحمود رياض فى الجمهورية الأولى استقراراً ومدة زمنية[3].

أ- نموذج الاتفاق. وهو النموذج الذى ساد فى الجمهورية الأولى بين الرياسة والخارجية، بين عبد الناصر من ناحية، ومحمود فوزى ومحمد رياض من ناحية أخرى. وهو الذى يعبر عن الثوابت فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية كما جسدها نمط الاستقلال الوطنى قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها. وقد كان عبد الناصر يؤكد أن وزير خارجيته يعبر عن وجهة نظره. كان التنسيق كاملاً بين الرئيس والوزير فى العلاقات المصرية السوفيتية والمصرية الأمريكية سياسياً وعسكرياً. ولم يقبل الرئيس مبادرة روجرز إلا بعد سلسلة من الدراسات طلبها من وزير خارجيته. وفى الخارجية ملف كامل منذ ذلك الوقت لخطط التسوية خاصة مبادرة روجرز وانسحاب إسرائيل من سيناء فى لجنة التخطيط بوزارة الخارجية.

---

(١) تولى الرئيس السادات بنفسه وزارة الخارجية مرتين: الأولى ١٩٧٧/١١/٢٧-١٩٧٧/١٢/٢٥، والثانية ١٩٧٨/٩/١٧-١٩٧٩/٢/٢٧.

(٢) وزراء الخارجية فى الجمهورية الثالثة:

أ- أحمد عصمت عبد المجيد ١٩٨٤/٧/١٦-١٩٩١/٥/٢٠.

ب- عمرو موسى ١٩٩١/٥/٢٠- حتى الآن.

(٣) هناك بعض التفصيلات الجزئية مثل تعيين حسين ذو الفقار صبرى مع محمود فوزى وزيراً للخارجية فى ١٩٦١، ومحمود فوزى نائباً لرئيس الوزراء للشئون الخارجية ومشرفاً على الخارجية والعلاقات الثقافية الخارجية فى مارس ١٩٦٤، ومرة أخرى مساعداً للرئيس للشئون الخارجية فى ١٩٦٧، ومحمود رياض نائباً للرئيس ووزير الخارجية (١٩٧٠-١٩٧٢)، ومحمد حافظ إسماعيل وزير دولة للشئون الخارجية عام ١٩٧١. محمد جوادى ص ٧٢/٧٥.

وبها ملف ضخم للخطط الإسرائيلية فى مجال التوسع الإقليمى والاستيلاء على الأنهار العربية أو الأهداف الاقتصادية، وهو مضمون مبادرة روجرز. وكانت الرياسة والخارجية على وعى تام بخطورة الحل المنفرد بين مصر وإسرائيل. إذ قد رفض محمود رياض اقتراح تيتو بمقابلة ناحوم جولدمان واقره عبد الناصر على رفضه. وقد اعتبرت الخارجية الأمريكية الخارجية المصرية عقبة فى سبيل تنفيذ سياستهم فى مصر التى تركز على الحل المنفرد مثل موقف دين راسك وزير خارجية أمريكا من قضية فيتنام بالرغم من الخلاف بين القضيتين. كما استدعى الوزير فى أغسطس ١٩٧١ السفراء المصريين بالخارج من العواصم الكبرى، مراد غالب من موسكو، ومحمد حسن الزيات المندوب الدائم فى الأمم المتحدة، وأشرف غربال من واشنطون، ووزير الدولة للشئون الخارجية حافظ إسماعيل، وأعضاء لجنة التخطيط. وانتهوا إلى انه لا مفر من عمل عسكرى لتحرير الأرض. ورفع التقرير إلى رئيس الجمهورية الثانية. فحرب أكتوبر ليست قراراً فردياً منه بل قرار جماعى من الدوائر السياسية للخارجية المصرية[1].

ب- نموذج الاختلاف. لم يظهر هذا النموذج فقط بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ فى الجمهورية الثانية بل كان سابقاً عليها أثناء النضال الوطنى فى مصر منذ الثلاثينات والأربعينات. وكان الخلاف وقتئذ بين الحكومة المسئولة أمام البرلمان التى أصبحت الرياسة فيما بعد دون أن تكون مسئولة أمام أحد، وسفراؤها فى الخارج ومندوبوها فى المنظمات الدولية. وقد يصل الخلاف إلى حد الاستدعاء أو الاستقالة. وقد حدث ذلك على الأقل أربع مرات.

الأولى مع د. عبد المحيد بدوى باشا رئيس وفد مصر فى مؤتمر سان فرنسسكو عام ١٩٤٥ ورئيسه فى الأمم المتحدة وممثل مصر فى مجلس الأمن عام ١٩٤٦ عندما رفض عرض قضية مصر على المجلس فى ١٩٤٦ لأنها لم تتمخض عن الحرب. ولما هاجمته الصحف الوفدية اعتذر بأنه يقصد الحل الودى. واستقال من منصب وزير الخارجية وعين عضواً فى محكمة العدل الدولية.

---

(١) محمود رياض جـ١/١٨٤/٣٣٦/٢١١-٢١٨/٢٤٣-٢٤٥/٣٢٦/٣٦٩ جـ٢/٣٦١.

والثانية مع محمد حسين هيكل باشا عندما بين أن وجود القوات البريطانية في اليونان غير دستورى لتهديدها الأمن والسلام. وتقدم إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ بطلب سحب كل القوات الأجنبية من دول البلقان بناء على الثوابت الوطنية فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية. فغضب وزير اليونان المفوض. وطالب بإبقاء القوات البريطانية للدفاع عنها ضد الخطر الروسى. فاعتبر هيكل ذلك رأيه الشخصى.

الثالثة مع محمد كامل عبد الرحيم سفير فوق العادة بالولايات المتحدة ورئيس وفد مصر خلال الدورة العادية الرابعة للجمعية العامة ابتداء من ١٩٤٩/٩/٢٠. لم يستمر طويلاً فى الأمم المتحدة لما تقتضيه سياسة مصر من مهاجمة السياسة الأمريكية فى الأمم المتحدة، وهو ما يتعارض مع مرونته فى التعامل مع الساسة الأمريكيين بوصف سفيراً لمصر فى واشنطون ثم تعيين محمد صلاح الدين مكانه. فى هذه الحالة الخارجية فى القاهرة هى التى تحافظ على الثوابت الوطنية[1].

والرابعة مع كامل عبد الرحيم سفير مصر فى واشنطون عندما صرح أمام الصحفيين بأن تحقيق أمانى مصر القومية فى مسألتى السودان وقناة السويس شرطان لأى موافقة من مصر على أى مشروع تحالف للدفاع عن الشرق الأوسط. فقد احتلت مصر فى ١٩٨٢ ولابد أولاً من إلغاء معاهدة ١٩٣٦ حتى تصبح دولة مستقلة تقبل الدخول فى الأحلاف. وقد استاءت الصحف المصرية. فالرأى العام هنا هو الضامن والحارس للثوابت الوطنية. وطالب اشتراك مصر فى اقتراح تركيا إنشاء اتحاد دول شرق البحر المتوسط يضم البلاد العربية وعلى رأسها مصر وتركيا واليونان، وبريطانياً وأمريكا إن شاءتا. ووافقت على اقتراحه الإدارة السياسية فى الخارجية، وهو ميثاق سعد أباد الذى يهدف إلى وضع ستار حديدى بين مصر وروسيا وإبعاد شبح الشيوعية، وحصار الصهيونية، واستبعاد إسرائيل من

---

(١) صفاء شاكر ص ١٨٤-١٨٩/٢١٥-٢١٨، محمود رياض جـ١/٤٧٤.

الانضمام، وتعزيز الصداقة بين مصر وبريطانيا حتى تستجيب بريطانيا لمطالب مصر، والاستفادة من أمريكا فى المساعدات، وقد رفضت الإدارة العربية الانضمام، وآثرت الانضمام إلى الحلف الأطلنطى لإهمال الدول العربية لميثاق سعد أباد، ولم يفعل شيئاً منذ غزو بريطانيا لإيران فى ١٩٤١. وليست لمصر حدود مشتركة مع الدول الأربعة. وتعارض بعض الدول العربية هذا الميثاق. ويدافع الحلف عن مصالح تركيا وبريطاني أكثر مما يدافع عن مصالح مصر.

وكانت ندوة الأهرام التى شارك فيها إسماعيل فهمى باعتباره وكيلاً لوزارة الخارجية هى بداية التحول فى الجمهورية الثانية من الشرق إلى الغرب، من الاتحاد السوفيتى إلى الولايات المتحدة، "وقفة مع الصديق"، "السادتية قبل السادات" مما يدل على أنها كانت جواً سياسياً سائداً. كان وكيل الوزارة "سادتياً" بالطبع، ولكنه آثر تركها فى منتصف الطريق، ولم يسر معها حتى النهاية. أخذ المقدمات دون النتائج، والنظرية دون الممارسة. وكان قد اختلف من قبل مع عبد الناصر بشأن تعيين مستشار للزعيم لومومبا "الراديكالى" ونصحه باتباع سياسة "معتدلة". ووضع السادات عينه على فهمى منذ ذلك الوقت الذى تجرأ على مخالفة عـ . الناصر فى حين وافقه الجميع. كانت الندوة كلمة حق يراد بها باطل. فقد طالب الوكيل: إعادة تقييم الوضع الدولى ولدور القوتين العظميين، عدم كفاية الدبلوماسية الدولية، إعادة تقييم العلاقات المصرية السوفيتية ومناقشتها مع السوفيت بصراحة على مدى ثمانية عشر عاماً، ضرورة أن تكون لمصر علاقات مع الولايات المتحدة التى يمكن أن تلعب دوراً مهماً فى الشرق الأوسط، ضرورة البداية بعمل عسكرى لإقناع إسرائيل والرأى العام بضرورة حل مشكلة الشرق الأوسط مع السوفيت، ضرورة استخدام البترول كسلاح فى أيدى العرب. وقد ظن السادات والسوفيت، وذرا للرماد فى العيون، أن الندوة قد تمت بإيعاز من الحكومة. فقدم السوفيت احتجاجاً رسمياً إلى مراد غالب وزير الخارجية الذى أعد بدوره قراراً جمهورياً بإعفاء إسماعيل فهمى من منصبه كوكيل لوزارة الخارجية وأن يعين سفيراً فى الوزارة. فقد كان غالب سفيراً فى موسكو وأحد مهندسى العلاقات المصرية السوفيتية بالرغم من

إعجابه بالتحليلات السياسية الجديدة للوكيل. وبدل أن يوقع السادات القرار الجمهورى رقى الوكيل وزيراً للخارجية[1].

ومنذ نهاية الجمهورية الأول كانت هناك رغبة فى "وقفة مع الصديق"، وضرورة تحييد الولايات المتحدة، وقبول مشروع روجرز وهى عبارات محمد حسنين هيكل الكاتب الصحفى ورئيس تحرير الأهرام فى ١٩٧٢. ومع ذلك كان هناك إحساس عام بضرورة التمسك بالحياد الايجابى وعدم معاداة الولايات المتحدة لأنها هى التى تمد إسرائيل بالسلاح وبالتأييد السياسى فى المنظمات الدولية فى مقابل تباطؤ الروس عن حسن نية أو سوء نية فى توريد السلاح، ودون المساس بالثوابت، الحليف التقليدى والعدو التقليدى.

ومع أن عبد الناصر رفض الدخول فى حلف جوى أو عسكرى مع الاتحاد السوفيتى حرصاً على الثوابت فى الثقافة السياسية المصرية وقع السادات معاهدة صداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى ذراً للرماد فى العيون، يعطى إشارة إلى اليسار ويتوجه إلى اليمين. فيطرد الخبراء الروس فى ١٩٧٢ تأشيرة خروج السوفيت ويعطى تأشيرة دخول للأمريكيين. وتخلى الاتحاد السوفيتى عن دوره فى المنطقة وبدأت المرحلة الأمريكية، أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى أيدى أمريكا، ملغياً بذلك الإرادة الوطنية والجبهات العربية والإسلامية ودول عدم الانحياز وملغياً العدو الصهيونى الذى يفرض إرادته على الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها. وأصبح يتشكك على الإطلاق فيما يقوله السوفيت، ويثق ثقة مطلقة بأمريكا وصديقه هنرى مع أن الأمر لا يتجاوز بيروقراطية الشرق وسرعة الغرب. وازداد التحول إلى أمريكا بعد نصر أكتوبر وازداد النقد للاتحاد السوفيتى المورد الرئيسى للسلاح قبل الحرب وأثناء الحرب وبعدها بدعوى تنويع مصادر السلاح. حاربت مصر بسلاح روسيا حليف أمريكا ثم صادقت أمريكا حليف إسرائيل. ألغت معاهدة الصداقة تحت دعوى أن السوفيت لا يتحدثون باسم مصر واستبدلت سيداً بسيد بعد أن أصبح فى يد

---

(١) إسماعيل فهمى ص٢٦-٣٤/٢٧.

أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة. وكان الرئيس من قبل قد القى خطاباً دفاعاً عن السوفيت على مأدبة غذاء رسمية أقامها السفير السوفيتى ذراً للرماد فى العيون، بحيث استحال بعدها التمييز بين الصدق والكذب[1].

وعندما أراد السادات إجراء تعديل وزارى استعداداً لحرب أكتوبر استدعى إسماعيل فهمى بعد أن عينه سفيراً فى بون كخطوة لتدعيم علاقته بالغرب وبعد أن أراد محمود رياض إقصاءه لتوجهه المعادى للسوفيت. جلس معه ساعتين ونصف فى استراحة القناطر وأبدى استغرابه لأفكاره قائلاً: "يا إسماعيل، إن هذا غريب جداً فالكثير من الناس لا يقولون لى ما قلته الآن". وعينه وزيراً للسياحة كمجرد غطاء قبل تعيينه وزيراً للخارجية لتنمية السياحة الأجنبية فى مصر. فالسياسة سياحة، والسياحة سياسة. اكتشف فيه غربيته ثم اختاره لإحداث هذا التحول فى الثقافة السياسية المصرية من الثوابت إلى المتغيرات. واستدعى السادات محمود رياض لتعينه أميناً عاماً للجامعة العربية لإزاحة الناصريين من الخارجية. كما أقصى محمد حسن الزيات من العهد الناصرى لتعيين إسماعيل فهمى بدلاً عنه.

ثم عرض إسماعيل فهمى على السادات تقديره للموقف فى ثلاثة احتمالات بعد اعتبار السادات الحرب وسيلة لإيقاظ الشعب المصرى وليس لتحرير الأرض، للإعلام الداخلى والخارجى، كسب شرعية حكم فى الداخل وحضور دولى فى الخارج، وليس لإزالة آثار العدوان أو حتى استرداد كامل سيناء. الأول الحرب الشاملة وإطالة فترة القتال والتى كان يفضلها فهمى. والثانى عملية عسكرية محدودة لتحريك الأمور وإثارة الرأى العام كى يقوم بمبادرة الشرق الأوسط، وتقتضى عبور القناة إلى سيناء، والأفضل الوصول إلى المضايق وبالتعاون مع دول عربية أخرى ولمفاجأة إسرائيل. ويكفى لذلك فترة محدودة حتى يتم التدخل الأجنبى وإيقاف وقف إطلاق النار. والثالث هجوم محدود ضد هدف محدد فى سيناء كضربة قاسية

---

(١) محمود رياض جـ١/١٢٣-١٢٧/٣٩٨-٤٠٠/٩/٣٩٣/٤٧٠-٤٧٢/٤٨٦/٤٩٠، محمد إبراهيم كامل ص٢٦، إسماعيل فهمى ص٢٧/٧٩.

لإحدى المنشآت العسكرية ثم الانسحاب إلى الضفة. فترد إسرائيل ويتم الرد عليها، هجمات وهجمات مضادة، تؤثر فى الساحة الدولية لطلب وقف إطلاق النار ودفع الأطراف إلى السلام. وعلق السادات أن الاختيار الثالث نوع من حرب الاستنزاف ١٩٦٧-١٩٧٠ ولا يفكر فيه[١]. والأول قد يؤدى إلى نكسة عسكرية ثانية. فلم يبق إلا الثانى وهو ما تم بالفعل فى حرب أكتوبر. فإسماعيل فهمى هو مهندس القتال للتحريك، والحرب للسياسة والذى مازالت تعانى منه الأرض المحتلة حتى الآن.

ولما لم تحل حرب أكتوبر شيئاً فكر فى الاتصال المباشر مع إسرائيل ولم يستشر فى ذلك إلا وزير خارجية رومانيا بعد أن عرض عليه شاوسسكو زيارة القدس. وبدأ مسلسل "صديقى هنرى" الذى كان ممثلاً لإسرائيل فى أمريكا أكثر من تمثيله أمريكا فى إسرائيل. وقد انتهى ذلك كله باتفاقيتى كامب ديفيد فى ١٩٧٨ والسلام فى ١٩٧٩ التى كانت بمثابة هزيمة سياسية تحقق أهداف ١٩٦٧ كهزيمة عسكرية.

ثم بدأ مسلسل الحلول الجزئية والمنفردة بفتح قناة السويس للملاحة وهو اقتراح موشى ديان، وضرورة دخول عبارة أمريكية أولاً القناة يوم ١٩٧٥/٦/٥ بناء على اقتراح هيكل حتى يتحول يوم الحزن إلى يوم فرح، وتتم فى اللاوعى الشعبى مقارنة هزيمة ناصر بانتصار السادات، وخوفاً من أن تطلق إسرائيل النار على الرئيس وكأنه مازال مستمراً فى الدفاع عن الثوابت الوطنية فى حين قد أطلق النار عليه المدافعون عن هذه الثوابت من الجماعة الإسلامية المعارضة[٢].

ومع ذلك ظل وزراء الخارجية صامدين. فقد سبق أن فاتح السادات إسماعيل فهمى بشأن زيارة القدس واعترض عليها، وأبلغ وزراء الخارجية فى تونس ذلك. ولما قام بها استقال على الفور. كما رفض التوقيع على اتفاق فك الاشتباك الثانى مع إسرائيل فى حين وقع الأول مع أمريكا حتى لا يتم الاعتراف بإسرائيل

---

(١) إسماعيل فهمى ص١٠/٢٨-٣١/٣٧-٦٠. محمود رياض جـ١/٤٠٨ن عصمت عبد المجيد ص١٣٤-١٣٥.
(٢) إسماعيل فهمى ص ١٢٧-١٢٩.

طبقاً لخدعة كسنجر. ورفض اقتراح بيع طائرات سى ١٣٠ لمصر من وراء القنوات الرسمية دون استشارة السادات. وإذا كان إسماعيل فهمى لم يتحمل زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ فإن محمد إبراهيم كامل لم يتحمل اتفاقية السلام فى ١٩٧٩. فقد كان من شباب الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل واعتقل مع السادات فى حادث مقتل أمين عثمان. شكل لجنة من خبراء وزارة الخارجية للتعرف على جوانب القضية، وطلب مساعدة رياض استعداداً لقمة كامب ديفيد. وكان السادات قد اختفى مع العربة التى كان من المفروض أن تنتظر حسين توفيق بعد اعتقاله أمين عثمان كما اختفى ليلة الثورة فى ٢٣ يوليو وافتعل حادثة شجار فى السينما، وسجله فى قسم الشرطة كى يثبت أنه لم يشارك فيها. وقد اعترف الجميع باشتراكهم فى الجمعية السرية إلا السادات. كما اشترك فى محاولة تهريب عزيز المصرى. كان محمد إبراهيم كامل من مدرسة الوطنية المصرية، مدرسة محمد صلاح الدين، ومحمود فوزى، ومحمود رياض. أراده السادات أن يحلف اليمين الدستورية بعد تعينه وزيراً للخارجية بحضور بيجين فى الإسماعيلية[1]. كما استدعى عيزرا وايزمان لزيارة مصر أثناء اجتماع وزراء الخارجية العرب، وكانت الخارجية ضد الزيارة. وفى حفل عشاء أهان بيجين "الوزير الشاب". وكان الوزير يشجع الرئيس على اتخاذ المواقف الوطنية مثل ضرورة استعداء اللجنة العسكرية من القدس. ثم استقال بعد قراءة مشروع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل التى أعدتها أمريكا لصالح إسرائيل وقبل التوقيع بأربع وعشرين ساعة[2].

وقدم مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير خارجيتها احتجاجاً مكتوباً ضد الاتفاق. كما أدرك أعضاء الوفد المصرى المخاطر الكامنة فى الاتفاق. وكتب إلى سيروس فانس يشكو من أن مذكرة الاتفاق موجهة ضد مصر فى ست عشرة نقطة: اتهامات مزعومة ضد مصر، عدم إبلاغ مصر إلا فى اللحظة الأخيرة، مساندة ادعاءات إسرائيل، افتراض انتهاك مصر للاتفاق، التحاف بين أمريكا وإسرائيل ضد

---

(١) محمود رياض جـ١/٥٣٩، إسماعيل فهمى ص ٢٤٧-٢٤٨/٢٥٩.

(٢) محمد إبراهيم كامل ص ٩/١٣/١٥/٤٢/٢١٤/٢٣٦/٤٢١.

مصر، إعطاء أمريكا حقوق لم يجر التفاوض فيها مع مصر، إعطاء أمريكا حق فرض عقوبات على مصر، تعبيرات غامضة تعطى لأمريكا سرعة توجيه الاتهامات إلى مصر، خضوع الإمدادات الاقتصادية والعسكرية لمصر لتقدير أمريكا وحدها، خضوع العلاقات المصرية الأمريكية لطرف ثالث هو إسرائيل، موافقة أمريكا على ما تقوم به إسرائيل ضد مصر، إعطاء أمريكا الحق فى فرض وجودها العسكرى فى المنطقة، شكوك حول نية أمريكا فى صنع السلام، الآثار العكسية لذلك على الصعيد العربى، حدوث تحالفات مضادة فى المنطقة[1].

كانت الاتصالات السرية تجرى على قدم وساق بين الرياسة والولايات المتحدة الأمريكية أو من خلال السعودية أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بالقاهرة. وبالرغم من وجود تعاطف بين إسماعيل فهمي وكسنجر فى البداية. وافق السادات على أثرها على نقاط المناقشة بين كسنجر ونكسون فيما عدا تبادل الأسرى ودون استشارة وزير الخارجية وهى: وقف إطلاق النار، بدأ محادثات للعودة إلى خطوط ١٠/٢٢، إمدادات مدينة السويس المحاصرة، إمدادات تموينية للضفة الشرقية للجيش الثالث المحاصر، مراكز تفتيش للأمم المتحدة على طريق القاهرة السويس بالاشتراك مع ضباط إسرائيليين، تبادل أسرى الحرب.

كان من عادة الرئيس الموافقة على ما يعرض عليه بصورة آلية دون أن يقرأه مع كسنجر كوسيط غير أمين مع إسرائيليين مراوغين. وقد لاحظ كسنجر نفسه ذلك على الرئيس الذى كان يميل إلى أخذ قرارات من وحى اللحظة دون التفكير فيها ودون استشارة الوفد المصرى. وقد قام كسنجر نفسه بنفس الدور كالسادات، لا يستشير رئيسه ولا سفير أمريكا بالقاهرة. ولعب دور إسرائيل ومجده الشخصى كالسادات. أحياناً يوافق الرئيس وزير خارجيته على ما يقول، استراتيجية كاملة مكتوبة، ثم ينفرد بالقرار. وعندما أراد إسماعيل فهمى إلغاء كلمة "إنهاء حالة الحرب" من اتفاق فصل القوات أخبره كسنجر أنها خط السادات أضافها على النص

---

(١) إسماعيل فهمى ص٤٤٤.

المطبوع. لقد كان الرئيس فى الواقع لا يثق فيمن حوله ولا يوفهم حق قدرهم، وكان يهاجم كل مسئول فى حكومته، لم تكن لديه أفكار واضحة عن السياسات الطويلة المدى بل كان يميل إلى أن يحيا يوماً بيوم، لحظة بلحظة. يتعامل مع المشاكل، كل على حدة، بمجرد ظهور كل منها. لقد تأثر الوزير بصفاته الإنسانية أكثر مما تأثر بعبقريته السياسية. وأصابه بعض القلق لما قد يحدث لمصر إذا استمر الرئيس على هذا المنهج. وكان يدير الدولة بأسلوب المقامر والمناضل الفردى ضد القصر والإنجليز. وفى اللحظة الحاسمة رفض الوزير التوقيع على وثيقة كامب ديفيد. كان هناك اعتقاد أن الرئيس يتصف بالمرونة بينما معاونوه المقربون يتصفون بالتشدد فى حين أن رئيس الوزراء بيجين كان يتصف بالتشدد بينما معاونوه المقربون يتصفون بالمرونة. ويقول محمد إبراهيم كامل "أشعر بالفخر إذ أقول أن سمعة وزارة الخارجية المصرية كانت رفيعة جداً فى تلك الفترة، وأن أى شخص فى الداخل أو فى الخارج كان يستفسر من وزراء الخارجية إذا أراد إيضاحاً حول موقف مصر ولا يستفسرون من رياسة الجمهورية أو من هيئات أخرى[1]. وإذا كان عبد الناصر يعتبر أن وزير الخارجية إنما يعبر عن وجهة نظره فإن السادات كان يخبر أمريكا أن الخارجية أولاد متشددون[2].

جـ- نموذج التكامل. ويعنى هذا النموذج تجاوز التماهى المطلق فى الجمهورية الأولى والتنافى المطلق فى الجمهورية الثانية، إلى نوع من التنسيق والتناغم والتكامل، الوحدة والتنوع، الجمع بين الدعوى ونقيضها فى دعوى ثالثة لا هى الدعوتان الأوليان ولا هى غيرها فى الجمهورية الثالثة. ويتطلب ذلك إبداعاً خلاقاً يتجاوز الطرفين الحدين، فإذا كانت الجمهورية الأولى قد قامت على قانون الهوية، والثانية على مفهوم الاختلاف فإن الثالثة قامت على أن الهوية فى الاختلاف، وأن الاختلاف فى الهوية.

---

(١) إسماعيل فهمى ص٦٦/٧٨/٩٠-٩١-١١١-١١٤/١١٦/١١٩/٣١.

(٢) محمود رياض جـ٢/٥٢٤ جـ١/٣٣٦، محمد إبراهيم كامل ص٥٠٦.

وقد بدأ هذا التكامل فى الجمهورية الثالثة على يد الوزيرين عصمت عبد المجيد وعمرو موسى. كلاهما مدنيان، أكاديمى دبلوماسى ودبلوماسى أكاديمى. تولى عصمت عبد المجيد أولاً مسئوولية العلاقات الثقافية والتعاون الفنى بالخارجية ترث وزارة العلاقات الثقافية التى رأسها د. حسين خلاف، تقديراً لدور الخارجية فى العلاقات الثقافية[1]. فمصر وريثة حضارات البحر الأبيض المتوسط، بلد الأزهر ومعقل الإسلام، قلب العروبة وثغر أفريقيا. وبدأ التنسيق مع باقى أجهزة الدولة فى مجال الثقافة والتعليم، وزارة التربية والتعليم، والتعليم العالى، والجامعات، والأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ووزارة الثقافة. وكانت الوزارة تضم عناصر ذات توجه يكاد يكون مستقلاً عن الخط العام للحكومة. وتسعى باستماتة إلى استعادة ما كانت تتمتع به من نفوذ وسلطان قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وفى الجمهورية الأولى بعد الثورة. ومع ذلك كان الوزير أقرب إلى الجمهورية الثانية، مؤيداً حركة التصحيح، ومبرراً طرد الخبراء الروس، وينقد الناصرية بعد انقضاء عهدها، ويتناول حرب أكتوبر على نحو إنشائى دون تحليل نتائجها السياسية.

وتغير الحال فى عهد الوزير عمرو موسى فأصبح التكامل أقرب إلى روح الجمهورية الأولى. فصدر قرار وزارى جديد رقم ٧٩٩ بتاريخ ١٩٩٢/٤/١٤ يحدد فيه الظروف الجديدة التى تعيشها مصر وتعمل فيها الخارجية المصرية مثل: العالم ذو القطب الواحد والتجمعات الإقليمية، تحرير التجارة العالمية، وتعدد الأقطاب الاقتصادية، والحذر من المؤسسات المالية الدولية والثورة التكنولوجية، تجاوز البيروقراطية، التجمعات الأهلية مثل جمعيات حقوق الإنسان وحماية البيئة، وفى نفس الوقت نمو الجماعات غير الشرعية، وضرورة وضع منظور استراتيجى شامل، والاعتماد على روح المنافسة والإيمان بالمبادرات، وترشيد الإنفاق. كانت أغراض التنظيم الجديد مواكبة التغيرات المستجدة إقليمياً ودولياً، والإفادة من ثورة الاتصالات وشبكة المعلومات، والقيام بدور إقليمى رائد ودبلوماسية متعددة

(١) عصمت عبد المجيد ص ٩٩-١٠٠/١١٠.

الأطراف، ومواجهة تحديات المجتمع المصرى، ومزيد من التخصص فى العمل الدبلوماسى، وتطوير المهارات الدبلوماسية وقدرات الدبلوماسى، وتحمل الأفراد مزيد من المسئوليات، وترشيد عملية صنع القرار. وتم تطوير المعهد الدبلوماسى وإدخال اللغات الحية ونظم المعلومات، وتنظيم الدورات العلمية والثقافية للمتابعة الشاملة وإقامة الندوات، ومعرفة المناطق التى يرسل إليها الدبلوماسيون. وأسس الوزير المجلس الاستشارى للشئون الخارجية من دبلوماسيين وأكاديميين وخبرات. وفتح قنوات للتعاون مع مراكز الأبحاث العلمية. كما أنشئت إدارة لشئون مجلسى الشعب والشورى لأول مرة للتنسيق بين وزارة الخارجية والمؤسسات الدستورية التى ظلت على الهامش فى الجمهوريتين الأولى والثانية[1].

وبدأت الخارجية مع الرياسة تعود إلى الثواب الوطنية والقومية السياسية المصرية خاصة فيما يتعلق بقضايا الحرب والسلام مثل: تأييد المطالب الفلسطينية، معارضة السلام المنفرد ومشاريع الاستسلام، وعدم تجاوز السلام البارد بعد تحرير الأرض، وتأجيل المفاوضات المتعددة الأطراف، ومقاطعة مؤتمر الدوحة. وتجميد خطوات التطبيع ... الخ، وإبلاغ وزير الخارجية مجلس الجامعة العربية بتجميد خطوات التطبيع فى أبريل ١٩٩٧ ثم أخيراً سحب السفير احتجاجاً على العدوان الإسرائيلى على الشعب الفلسطينى وتطبيقاً لمؤتمر القمة العربى الأخير فى القاهرة. وعادت الخارجية من جديد مؤسسة ولادة لجيل جديد من الدبلوماسيين المصريين المدافعين على الثوابت الوطنية فى السياسة المصرية مثل فتحى الشاذلى نائب وزير الخارجية الذى أعلن أن لغة نتانياهو تبعث على الاشمئزاز، وأنها إطلاق لصيحات الحرب، وأن نتانياهو لم يعد شريكاً فى عملية السلام.

وبدأ التفاعل من جديد بين الدوائر السياسية للخارجية المصرية تدعيماً لنضال الشعب الفلسطينى والانتفاضة الأولى والثانية وبزوغ الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، والتضامن العربى، ورفع التناقض بين الثورة العربية والثورة

---

(١) د. جهاد عودة ص٥٢-٥٥/٥٧-٥٩/٦٦-٦٧/٧٠.

الإسلامية فى إيران، والعمل على تحرير ما تبقى من أراضى محتلة فى الجولان بعد أن تم تحرير جنوب لبنان. وعادت مصر تكتشف ريح الشرق، الصين واليابان وكوريا، وتتطلع إلى اللحاق بالنمور الأسيوية، وإعادة الجسور مع الاتحاد السوفيتى بالرغم من انهيار النظم الاشتراكية، وإقامة تجمعات إقليمية جديدة فى مواجهة العولمة والشركات المتعددة الجنسيات، مجموعة الثمانية، مجموعة الخمسة عشر، ومجموعة الثمانية عوداً إلى الدائرة الأسيوية الإفريقية، وتحييد أوربا ومبادرات الحوار بين الشمال والجنوب، والتفاعل مع مشاريع الشرق أوسطية والمتوسطة دون أن تكون الباب الخلفى للتطبيع مع إسرائيل أو تكون بديلاً عن القومية العربية، وتغيير الرأى العام الأمريكى دون التفريط فى استغلال الإرادة المصرية[1]. ولما كانت الثقافة السياسية للخارجية المصرية هى نفسها الثقافة السياسية الداخلة فتم التأكيد على ضرورة توسيع الهامش الديمقراطى فى مصر. فالسياسة الخارجية تعبير عن السياسة الداخلية. يصنعها الشعب قبل أن تصوغها الرياسة.

ويدل على ذلك تحليل مضمون خطب وبيانات وتصريحات الوزير عمرو موسى على مدى أربعة أعوام ١٩٩٤-١٩٩٧ فى منتصف عهده منذ ١٩٩١ حتى الآن على سلم الأولويات فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية وهى: أمريكا (بيانات وخطب نيويورك، وواشنطون، وجورج تاون، وهيوستن) ثم أفريقيا ثم الأمم المتحدة، ثم الشرق الأوسط ومجلسى الشعب والشورى والمتوسطية ثم أوربا وآسيا وجامعة القاهرة، ومرة واحدة تل أبيب[2].

ومن حيث الموضوعات تعود مصر بؤرة للدوائر الثلاث، الدائرة العربية والدائرة الإفريقية الأسيوية التى تختلف كثيراً عن دول عدم الانحياز أو الدول الإسلامية ثم يضاف إليها دائرة العالم كله فى عصر العولمة. ولا فرق بين السياسية الداخلية والسياسية الخارجية. فالمجتمع واحد فى الداخل والخارج. وقوة الخارج

---

(١) د. جهاد عودة ص ٣٦٠-٣٦٢.

(٢) أمريكا أفريقيا (٨)، الأمم المتحدة (٧)، مجلسى الشعب والشورى (٥)، الشرق الأوسط، المتوسطية (٤)، آسيا، أوربا، جامعة القاهرة، القاهرة (٣)، تل أبيب (١).

فى قوة الداخل كما هو الحال فى كل التحولات الثورية، الثورة الفرنسية وخروج نابليون من الداخل الخارج، والثورة الأمريكية، والثورة الاشتراكية، والثورة الإسلامية فى إيران.

فعلى الصعيد الوطنى تظهر موضوعات التنمية والخصخصة والمرأة والسكان وحقوق الإنسان والبيئة. وهى الموضوعات التى أرادها عصر العولمة أن تشغل الدول النامية بعيداً عن الدولة الوطنية. وعلى الصعيد العربى تظهر بطبيعة الحال القضية الفلسطينية، وحقوق شعب فلسطين، وإقامة السلام على العدل، وضرورة تطبيق قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢/٣٣٨/١٩٤، والالتزام بالشرعية الدولية، وفضح جرائم إسرائيل، وعدم شرعية المستوطنات، وضرورة إخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل. ثم تأتى باقى الموضوعات العربية ليبيا والعراق والسودان وإريتريا ضد مخاطر الحصار والتهديد والتقسيم والحروب الأهلية والعرقية والطائفية دفاعاً عن الأمن القومى العربى، وضرورة تفعيل دور الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومجموعة الثمانية، ومجموعة الخمسة عشر، والكوميسا، والحوار العربى الأوربى، وحوار الشمال والجنوب، وبرشلونة والوقوف ضد سياسة التطهير العرقى فى البوسنة والهرسك وكوسوفو والشيشان. كل هذه التجمعات الإقليمية والدولية إنما هى دوائر لتحركات مصر بما فيها الشرق أوسطية المتوسطية دون أن يكونا بديلين عن القومية العربية أو بابين خلفيين للتطبيع مع إسرائيل. وعلى الصعيد الدولى تعى الخارجية المصرية تغير العالم وثورة الاتصالات والتحول إلى الألفية الجديد، والانتقال من قرن إلى قرن، ونظام العولمة ومؤسساته مثل منظمة التجارة العالمية، واتفاقية الجات والديون التى تثقل كاهل دول العالم الثالث، وإصلاح المنظمات الدولية بعيداً عن سيطرة الدول الكبرى، وضرورة حل المنازعات بالطرق السلمية، ونهاية النظم العنصرية من العالم مثل جنوب أفريقيا، فى عالم متعدد الثقافات، تتحاور فيه الحضارات ولا تتصارع، تلتقى ولا تتصادم. هذه هى الموضوعات الغالبة على خطب وبيانات عمرو موسى تذكر بالجمهورية الأولى فقد كان من تنظيمها الطليعى. يمكن إذن طى صفحة الماضى الذى خرج على الثوابت

الوطنية فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية باسم الواقعية السياسية دون الوقوع فى أحلام الجمهورية الأولى وطوباوياتها.

ومن ثم تعود مصر إلى مركز العالم أفريقيا فى جنوبها وأوربا فى شمالها والمغرب العربى، وأمريكا عبر الأطلنطى فى غربها، وآسيا فى شرقها.

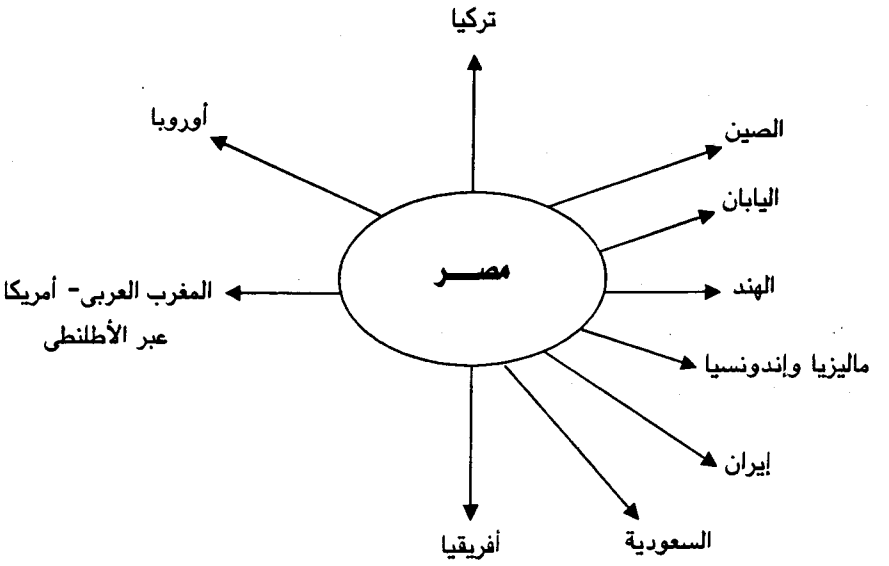

مصر دولة عربية إسلامية أفريقية فى قلب منطقة الشرق الأوسط فى حوض البحر المتوسط، فى المركز بين أوربا وآسيا وأفريقيا. كما أنها دولة نامية تتفق مصالحها مع الخط العام لدول العالم الثالث. وهى قادرة بميراثها الدبلوماسى الطويل وعمقها التاريخى على تحرك إقليمى ودولى فى مواجهة العولمة، لقاء الحضارات واستمرار التاريخ فى مواجهة صراع الحضارات ونهاية التاريخ. وهى فى قلب الحضارات القديمة، اليونان والرومان غرباً، وفارس والهند شرقاً. ساهمت فى قلب الحضارات الإسلامية على نقل حضارات العالم من العصر القديم إلى العصور الحديثة حتى ورثتها أوربا، من ابن سينا وابن رشد وابن خلدون والحسن بن الهيثم إلى جاليليو واسيبنوزا وكانط. ومن ثم تتحول الثقافة السياسية للخارجية

المصرية من الدبلوماسية إلى التاريخ[1].

٣- الجيش، والرأى العام، والأحزاب، والمجالس الدستورية والقضاء. إذا كانت الرياسة والخارجية هما أهم دائرتين سياسيتين فى صنع القرار وفى الاتفاق أو الاختلاف أو التكامل بينهما فإن باقى دوائر الثقافة السياسية أقل فاعلية لظروف وأوضاع كل منهما مثل الجيش، والرأى العام، والأحزاب السياسية، والمجالس الدستورية. فالجيش طبقاً للدستور لا يتدخل فى السياسة وإن كان هو الحامى للمكتسبات الشعبية. والرأى العام كان فى معظمه حكراً على الحزب الواحد بالرغم من تحوله تدريجياً إلى التعددية الحزبية من الجمهورية الأولى حتى الجمهورية الثالثة. والأحزاب السياسية فى غالبيتها هى الحزب الحاكم الذى هو الرياسة، وضعف أحزاب المعارضة. والمجالس الدستورية، الشعب والشورى يتحكم فيهما الحزب الحاكم أى الرياسة بالانتخاب أو التعيين.

أ- الجيش. وهو المدافع عن سلامة الوطن مع مجلس الأمن القومى فى الحرب والسلم. كان الجيش جزءاً من الحياة السياسية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وازداد دوره بعدها. كان هناك إعجاب فى الجيش بالعسكرية الألمانية فى الأربعينات عند الثلاثى الحربى " كما تصفهم السفارة البريطانية " فى حكومة على ماهر: عبد الرحمن عزام وزير الأوقاف، وصالح حرب وزير الدفاع، وعزيز المصرى رئيس هيئة الأركان[2]. فعدو عدوى صديقى [3].

وحركة الضباط الأحرار هى استمرار للحركة الوطنية فى الأربعينات. وإلغاء النحاس لمعاهدة ١٩٣٦ مثل تأميم ناصر للقناة عام ١٩٥٦ والذى وضع حداً لمعاهدة الجلاء فى ١٩٥٤. كان وجود العسكريين المصريين فى الخارجية نادراً. فبعد عودة الوزارة فى ١٩٢٢ بعد ثورة ١٩١٩ تم اختيار السلك الدبلوماسى من

---

(١) خطاب فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ١٩٩٥/١١/١٢. المؤتمر الوزارى الأوروبى المتوسطى ١٩٩٥/١١/٢٧ جـ٣/١٢٠-١٣٣-١٣٤.

(٢) د. صفاء شاكر ص ١٢١ محمود رياض جـ٢/٢٨٠. محمد إبراهيم كامل ص ١٢.

(٣) د. صفاء شاكر ص ٢٢٣-٢٢٤.

موظفى الحكومة من مختلف الوزارات أو من الموظفين من خارج الحكومة أو من أصحاب المهن الحرة أو من صفوف العسكريين مثل البكباشى صالح عبد الرحمن أفندى قنصلاً من الدرجة الثانية فى جدة. لذلك تمثل ثورة ١٩٥٢ بداية عهد جديد للخارجية المصرية. فقد تغلغل العسكريون فى الخارجية. وخرجت الطبقة الأرستقراطية لتحل محلها الطبقة الوسطى. لم يدخل العسكريون قبل الثورة إلا ثلاثة: اللواء على نجيب الوزير المفوض فى سوريا، واللواء أركان حرب محمد إبراهيم سيف الدين الوزير المفوض فى الأردن، والفريق عزيز المصرى الوزير المفوض فى الخاصة ثم الوزير المفوض فى الاتحاد السوفيتى. وفى عام ١٩٦٢ بلغ عدد العسكريين اثنين وسبعين ضابطاً من مجموع عدد السفراء بالخارجية وهم مائة أى بنسبة ٧٢٪. وكان سفراء مصر فى أوربا كلهم من الضباط عام ١٩٦٢ باستثناء ثلاثة من المدنيين.

وكما أن هناك اتفاقاً بين الخارجية والرياسة، هناك أيضاً اتفاق مشابه بين الخارجية والرياسة والمؤسسة العسكرية باستثناء ما قبل هزيمة ١٩٦٧ فى الجمهورية الأولى وما بعد انتصار ١٩٧٣ فى الجمهورية الثانية. فالعمل السياسى عمل عسكرى تمهيدى، والعمل العسكرى عمل سياسى تنفيذى. العمل السياسى تتويج للعمل العسكرى، والعمل العسكرى تحقيق للإرادة السياسية. فحرب ١٩٧٣ تمت بناء على خطة جرانيت ٢٠٠٠ التى أعدها ناصر ورياض وفوزى فى عمق سيناء. كما طلب ناصر من فوزى تقريراً عن الموقف العسكرى قبل مبادرة روجرز. وكان التعاون بين الخارجية والمؤسسة العسكرية فى ١٩٧٣ رد فعل على الفصل بينهما فى ١٩٦٧. وكان رياض على صلة بفوزى، فكلاهما زملاء دراسة من دفعة ١٩٣٦.

ويمكن للجيش القيام بضغوط على القيادة السياسية فى حالة التراخى العسكرى. فقد تململ الجيش بعد إعداد فوزى له من التراخى فى تحرير سيناء وتأجيل سنة الحسم إلى ما لا نهاية والرغبة فى استرداد كرامته وكرامة الشعب

الوطنى. وكانت القوات المسلحة قبل ذلك تلح على عبد الناصر للقيام بعمل عسكرى ضخم ضد إسرائيل خصوصاً سلاح الطيران كرد فعل على غارات إسرائيل فى العمق. وقد أخطرت الخارجية موسكو بالاستياء فى أوساط الجيش لعدم تزويدهم بمعدات سبق التعاقد عليها مثل الصواريخ الخاصة بفتح الثغرات فى حقول الألغام وأدوات التنشين للمدفعية بعيدة المدى وأجهزة الرؤية الليلية للمدرعات. وبعد الغارات الإسرائيلية فى العمق طالب ضباط سلاح الطيران بضرورة تماسك الجبهة الداخلية. فالجيش جيش الشعب، والشعب شعب الجيش[1]. ودون التنسيق بين الخارجية والجيش تحدث النكسات العسكرية كما حدث فى ١٩٦٧ أو السياسية كما حدث فى ١٩٧٣. ففى حرب ١٩٦٧ لم يكن هناك تنسيق بين الخارجية والجيش. وقبلها ببضعة أسابيع فقط تم إنشاء غرفة عمليات سياسية بالخارجية لوضع تقييم دقيق للنتائج، مركزة على عبد الناصر ودائرته المقربة. وكان عبد الناصر قد أخذ قراراته بسحب قوات الأمم المتحدة من سيناء، دون استشارة أحد من الخارجية، عن طريق وزير الخارجية إلى الجنرال ريكى الذى رفض استلام الطلب إلا عن طريق الأمم المتحدة. فطلب عبد الناصر انسحاب قوات الأمم المتحدة من بعض المواقع فحسب. ثم تم إبلاغ الخارجية. ورفض عبد الناصر مذكرة الخارجية والتحليلات العقلانية، واتخذ سلسلة من القرارات الفردية الذاتية. واندلعت الحرب وهزمت مصر، وأفل نجم عبد الناصر، وانتهى مستقبله السياسى. وكان الأمر مجرد وقت. لا فرق إذن بين هزيمة ٦٧ العسكرية وهزيمة ١٩٧٣ السياسية إلا أن الأولى كانت لصالح الوطن والثانية كانت لصالح الغرب، الولايات المتحدة وإسرائيل. كانت الفردية فى قائد الجيش ١٩٦٧، وفى الرياسة فى ١٩٧٣. فرح الأول بدخول طائرتى ميج ٢١ للاستطلاع فوق بير سبع التى لا تبعد إلا بضع دقائق عن الحدود المصرية لإثبات مدى قوة سلاح الطيران. وبعد هزيمة ١٩٦٧ قدم عامر طلباً بنقل أسماء عشرة من ضباط إلى الخارجية منهم أحمد إسماعيل. ولم يقبل ناصر إلا بعد استشارة رياض. ثم انتحر قائد الجيش فى ١٩٦٧. فهو المسئول عن الهزيمة العسكرية كما أنه

---

(١) محمود رياض جـ١/٢٤٦/٣٦٩/٢٢٠/٣٣٦/٣٨٣ جـ٢/٣٦٩.

مسئول عن الانفصال مع عسكرى آخر عبد الحميد السراج فى ١٩٦١. وكان الجيش قد أصبح مؤسسة سياسية وليست عسكرية. وتخيل أكاليل النصر بدلاً من التدريب فكانت هزيمة ١٩٦٧[١].

وقامت حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٧٠ بضغوط من الجيش. بل لقد حدث عدة مرات عبور جزئى إلى الضفة الشرقية. كما اقتحمت قوات الصاعقة موقعاً بالضفة الشرقية، ورفع العلم المصرى عليه فى يوليو ١٩٦٩ بالرغم من استمرار غارات إسرائيل فى العمق. بعدها بدأ التغير الأمريكى بناء على قدرة القوات المسلحة الدخول فى معركة عسكرية لتحرير الأرض.

كان رياض يحادث عبد الناصر فى المسائل السياسية والعسكرية معاً، سياسة الوصول إلى المضايق مما يؤدى إلى تحريك الموقف الشامل. كانت الخطة دفاعية هجومية. ووافق عبد الناصر على الخطة ٢٠٠٠. وأخطره فوزى أن القوات المسلحة جاهزة لتنفيذها ابتداء من مارس ١٩٧١، وهو الموعد الذى حدده ناصر. واستدعى السادات الفريق محمد صادق وزير الحربية للحصول على طائرة بعيدة المدى لتحرير كل الأراضى العربية. وكان رأى احمد إسماعيل تحريك الموقف سياسياً دون الوصول إلى المضايق. ثم تبنى رأى فوزى ورياض.

ولم يتعلم السادات دروس ١٩٦٧ بضرورة الدراسة أولاً. وفى اجتماع مجلس الوزراء قالوا له "إحنا وراءك يا ريس ونؤيد المعركة". وكان الجيش السورى قد تعاطف مع الجيش المصرى فى ١٩٥٦. بل أنه هو الذى فرض الوحدة فى ١٩٥٨ عندما استدعى المجلس العسكرى السورى الملحق العسكرى المصرى بسفارة مصر فى دمشق لعرض الوحدة. واجتمعت أركان حرب الجيوش العربية لوضع خطة لعمل جماعى عربى مشترك. وكثف الجيش اتصالاته مع الجيش السورى تحت قيادة المشير أحمد إسماعيل لتحديد موعد المعركة، وأثناء سير حرب ١٩٧٣ تدخل السادات بقرارات عشوائية فحدثت الثغرة لعدم وجود قيادات ميدانية

---

(١) إسماعيل فهمى ص ٤٢/٤٠، رياض جـ١/٤٤/٣٥/٧٠.

للتعامل معها تكراراً لأخطاء ١٩٤٨ لولا دفاع اللواء صادق عن قطاع غزة. غير السادات خطة الهجوم إلى خطة عبور، وحول النصر إلى هزيمة. وضغط الجيش لتصفية الثغرة والرئيس يرفض ويسوف ويماطل. وكان الخطأ أمر فرقة مدرعة بالعبور إلى شرق القناة من الاحتياطى الذى يدافع عن غرب القناة لتطوير الهجوم يوم ١٠/١٤[١].

وبعد وفاة عبد الناصر عقد السادات اجتماعاً مشتركاً لمجلس الدفاع يضم وزراء الحربية والخارجية والداخلية والإعلام ورئيس المخابرات العامة والحربية. وقرر وقف إطلاق النار ثلاثة شهور أخرى[٢]. كما استشار خبراء وزارة الخارجية فى كيفية تطبيق القرار ٢٤٢. ولما تصور الرئيس أن عبد الناصر كان ينفرد بالقرارات أراد أن يقوم بنفس الشىء كأحد مظاهر الزعامة مع أن عبد الناصر منذ يونيو ٦٧ لم ينفرد بقرار سياسى أو عسكرى دون الرجوع إلى وزيرى الخارجية والحربية. وأحياناً كان يستمع إلى أكبر عدد من الآراء، والرئيس فى النهاية صاحب القرار. وبعد اجتماع السادات بروجرز وسيسكو استبعد الحل العسكرى والاستعداد له على قدم وساق. كان يتصل بأمريكا مباشرة. وكان وزير الخارجية يعلم ذلك فيما بعد عن طريق السفارات المصرية والأجنبية فى الخارج. ويقول لكسنجر "جيشى! أولاً وجدت صعوبة فى إقناعه بالحرب والآن أجد صعوبة فى إقناعه بالسلام". وهى إهانة لجيش مصر مرتين.

وبعد أن اندلعت الحرب فى ١٩٧٣ غير السادات خططها من خطة تحرير إلى تحريك، ومن استرداد سيناء على الأقل إلى ما بعد المضايق إلى إثارة الرأى العام للحل المنفرد. فأدى النصر العسكرى للقوات المسلحة إلى هزيمة للإرادة السياسية. وقد انفرد بالقرار أيضاً بعيداً عن شريك الحرب الحليف السورى. غير خطة الهجوم إلى خطة عبور، وحول النصر إلى هزيمة. وفى اتفاقية فصل القوات رفض الجمسى

---

(١) محمود رياض جـ١/٣٧١/١٦٦/٤٣٩/٤٥٩ جـ٢/٨٣/١٧٤/٢٢٦-٢٢٨/٤١٠-٤١١/٤١٢-٤٢٩.

(٢) محمود رياض جـ١/٣٠٣، جـ٢/٣٧١/٣٧٦/٤١٢-٤٢٩/٣٦٩/٣٨١، إسماعيل فهمى ص٥٢/١١٧-١١٨.

سحب القوات المصرية غرب القناة بعد العبور. كان السادات يثق فى الخبراء العسكريين الأمريكيين أكثر من المصريين لمعرفة خطوط الهدنة ومدى انسحاب إسرائيل فى حالة الحل الجزئى. وأبلغهم أن وزيرى الخارجية والدفاع يعارضان سياسته. فى حين وافق السادات فجأة على قصر الوجود العسكرى المصرى على شرق القناة على ٧٠٠٠ جندى بعد أن عبر ١٠٠٠٠، ٣٠ دبابة بعد أن عبرت ١٠٠٠ فى حين أن كسنجر كان يتوقع ألا يقبل السادات بأقل من ٢٥٠ دبابة. وبكى الجمسى بعدها.

وانتهت المكاسب العسكرية التى تحققت فى المراحل الأولى لحرب أكتوبر إلى خسارة سياسية بسبب سيطرة كسنجر على المسرح السياسى خاصة فى تجزئة القضية واتباع سياسة الخطوة خطوة أى الحل المنفرد. واعترف كسنجر لبوتفليقة وزير خارجية الجزائر أنهم لا يعتبرون السادات عدواً لهم. ووقعت المنطقة فى حالة اللاسلم واللاحرب[1].

وفى خطبة السادات الشهيرة أمام مجلس الشعب فى نوفمبر ١٩٧٧ لاحظ الجمسى وعرفات أنه أعاد عبارة استعداده للذهاب إلى آخر العالم، إلى الكنيست الإسرائيلى، مرة ثانية. وقد ادعى البعض أن السادات قد عرض فكرته على مجلس الأمن القومى ووافق عليها، وأنه بعد العودة من بوخارست وطهران والرياض دعا مجلس الأمن القومى فى ١١/٥ ليعطى ملخصاً عن الرحلة ويقول فى النهاية عرضاً "إنى مستعد للذهاب إلى القدس وإلقاء خطاب فى الكنيست لو كان فى هذا إنقاذاً لدم أبنائى". وقد صرخ الجمسى رافعاً يديه "الكنسيت كلا، الكنيست كلا ...هذا غير ضرورى". وهو رجل نظام. واستمر السادات وكأنه لم يسمع صراخ الجمسى. وبعدها زار دمشق والسعودية اللذين رفضا الزيارة. ولما سأله وزير الخارجية إسماعيل فهمى: أهذه دكتاتورية أم ديمقراطية ؟ ولماذا لم تبلغ أعضاء مجلس الأمن القومى؟" قال: "لن أتناقش مطلقاً مع أى فرد. أنى لا أهتم برأى أى شخص. لن

---

(١) محمود رياض جـ١/٨/٤٣٧.

أفعل هذا مطلقاً". واستقال الوزير. كما استقال محمد رياض، وزير الدولة للشئون الخارجية قبل أن يستلم عمله خلال ست دقائق. وعرض عليه مصطفى خليل أن يذهب معه إلى الرحلة. ومع ذلك اعترض تفصيلياً على مشروع المعاهدة الذى قدم للوفد المصرى أربعاً وعشرين ساعة قبل الاجتماع[1].

ب- الرأى العام. والرأى العام له ضغوطه على الخارجية والرياسة بل والجيش. فأبناؤه من الشعب. والرأى العام هو الوعاء للثوابت فى الثقافة السياسية للخارجية المصرية. ويؤكد إسماعيل فهمى ذلك بقوله "وفى الداخل جعلت سياستى أن أقيم حواراً مستمراً مع مجلس الشعب والصحافة وأن الصلة بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية موطن القوة"[2]. ويتجلى الرأى العام أولاً وقبل كل شئ فى المظاهرات الطلابية. فالطلاب هم المؤشر على الحياة الوطنية فى مصر، مظاهرات الطلاب فى ١٩٦٨ ضد أحكام الطيران، وفى ١٩٧١ ضد تأجيل معركة التحرير بعد سنة الحسم، وفى يناير ١٩٧٧ ضد غلاء الأسعار والتى دفعت الرئيس إلى زيارة القدس فى نوفمبر نفس العام للبحث عن أحلاف الخارجية، وفى ١٩٩١ وفى ١٩٩٨ لإيقاف العدوان الأمريكى على العراق والثانى، وفى ١٩٩٩ تضامناً مع الانتفاضة فى فلسطين، وكثيرة المناسبات الأخرى مثل غزو جنوب لبنان وحصار بيروت، حرب المفاعل النووى العراقى، إنزال الطائرة المصرية من فوق مالطة، ومظاهرات ٩/١٠ يونيو لإرجاع عبد الناصر فى ١٩٦٧. وعندما سأل شوين لاى عن أسباب مظاهرات الطلاب اخبره رياض بسبب الاحتلال ونفاذ الصبر. كان فى بداية عام ١٩٧١ توتر شديد فى مصر وأزمة داخلية فى البلاد. فبعد مد عام الحسم انخفضت شعبية الرئيس، وقامت مظاهرات الطلاب، واعتصموا فى ميدان التحرير. واندلعت مظاهرات العمال ضد الوضع الاقتصادى المتدهور. وعرف هذا الجيل بجيل السبعينات. وتبلغ الذروة فى جنازة عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ عندما حملته الملايين على الأعناق وإغماء العشرات فى مقابل جنازة السادات التى حضرها أربعة

---

(١) إسماعيل فهمى ص٣٩٨/٤٠٧/٤١٠/٤١٢.

(٢) إسماعيل فهمى ص١٦٥/١٩/٢٨٣. رياض جـ١/٣٩٧/٢٩٤/٤٧٧.

من رؤساء أمريكا السابقين، والشوارع فارغة من الناس، وجنازة كنيدى التى قدمت فيها المرطبات والفطائر للمعزين. ومثلها مظاهرات التأميم فى ١٩٥٦، والوحدة مع سوريا فى ١٩٥٨. وأحياناً تتحول المظاهرات إلى مقاومة شعبية مثل ١٩٥٦ وفى ١٩٧٣ أثناء حصار السويس أو إلى صمود عسكرى مثل معركة رأس العش وإغراق المدمرة ايلات بعد الهزيمة فى ١٩٦٧. يعبر الرأى العام عن نفسه أيضاً من خلال مواقف المثقفين الوطنيين والكتاب والأدباء والفنانين الذين يماثلون الدبلوماسيين المثقفين فى الخارجية المصرية. وهناك مؤشرات أخرى مثل فيلم ناصر ١٩٥٦ الذى فجر حنين الناس إلى المقاومة بدل حالة الاسترخاء والضياع، وتمثيلية أم كلثوم أو التمثيليات التليفزيونية لأسامة أنور عكاشة "ليالى الحلمية"، "زيزينيا"، "الراية البيضاء"... الخ. وهناك أيضاً انتخابات اتحادات الطلاب والنقابات المهنية. المهندسون والأطباء والمحامون. وقد أنشئت لجان شعبية لمقاومة التطبيع ومساندة شعب العراق. بل إن مراكز حقوق الإنسان والمجتمع المدنى والمرأة وجماعات التنوير خرجت عن إطارها الفردى التقليدى وأصبحت جزءاً من حركة الاحتجاج العام فى المجتمع.

جـ- الأحزاب. كانت الأحزاب وصحافتها خاصة حزب الوفد تقوم بدور مؤثر فى الرقابة على السياسة الخارجية المصرية التى تخرج على الثوابت الوطنية فى الثقافة السياسية. ولما اصطدمت الثورة بها فى أول سنتين تم إلغاء الأحزاب وتأميم صحافتها. وتأسيس نظام الحزب الواحد فى الجمهورية الأولى. ونشأت المنابر فى الجمهورية الثانية كأجنحة فى الحزب الحاكم قبل أن تتحول إلى أحزاب معارضة نشأت فى حضن السلطة وبقرار منها أو من القضاء. فإذا اشتدت وخرجت عن دور المعارضة "المستأنسة" اصطدمت بالسلطة. وهو ما حدث بعد حل الاتحاد الاشتراكى والقبض على أعضاء اللجنة المركزية فيما سمى بثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١، وبعد الانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، وغلق صحف المعارضة ثم إدخال كل المعارضين على كافة خصائلهم، الناصرية والإسلامية والماركسية والوفدية فى مذبحة سبتمبر ١٩٨١.

كانت مهمة الحزب الواحد الحاكم ولجنته التنفيذية العليا أثناء الجمهورية الأولى التصديق على قرارات الرياسة والموافقة على سياستها أو مجرد إخبارها بما اتخذ سلفاً من قرارات. فقد طلب عبد الناصر وهو فى المستشفى على صبرى عضو اللجنة التنفيذية العليا لاستطلاع رأى اللجنة فى مبادرة روجرز. واجتمع بهم الرئيس بعد عودته لمناقشة المبادرة معهم. وقد قام الرئيس بشرح المبادرة بنفسه فى المؤتمر القومى للحزب وعرض أسس الحل الشامل. كما طالب عبد الناصر على صبرى بزيارة موسكو اشتراكاً للحزب فى المفاوضات مع دولة الحزب فيها له السلطة العليا. وأدرك عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ ضرورة التحرر من جماعات الضغط ومراكز القوى عن طريق إجراء انتخابات حرة على أساس حزبين. ثم تخلى عن الفكرة إلى ما بعد إزالة أثار العدوان[1]. وكان قد أدرك من قبل أن أحد أسباب الانفصال التعددية الحزبية فى سوريا والحزب الواحد فى مصر، وفرض نظام الحزب الواحد فى سوريا بعد حل الأحزاب.

ولم يتغير الأمر فى الجمهورية الثانية حتى بعد التجربة الحزبية التى تقوم على التعددية المحدودة نظراً لسيطرة الحزب الحاكم. واستمر الأمر كما هو عليه فى الجمهورية الأولى، حزب واحد غير مؤثر، مهمته الاحتفالية أو الموافقة بعد العرض. ففى اجتماع طارئ مشترك للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء فى ١٩٧٠/٩/٢٨ كان الهدف ترتيب جنازة عبد الناصر. وعرض على اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء ترتيبات. الجنازة وقرأ البيان السياسى الذى كتبه وزير الخارجية محمود رياض يؤكد فيه على الاستمرار فى سياسة عبد الناصر، والتمسك بالتحالف مع الاتحاد السوفيتى. ثم اجتمعت اللجنة المركزية فى ١٩٧٠/١٢/١٦ لرفض اقتراح ديان بانسحاب إسرائيل إلى منطقة المضايق وفتح قناة السويس للملاحة الدولية، وهى المبادرة التى نسبها السادات إلى نفسه. كما احتجت اللجنة فى ٤/٢٥ لمناقشة موضوع الوحدة مع ليبيا الذى اقترحه الرئيس

---

(١) محمود رياض جـ١/٨٠، جـ٢/١٧٥.

ذرا للرماد فى العيون. ودعا الرئيس مجلس الدفاع الوطنى لمناقشة مهمة يارنج مبعوث الأمم المتحدة ومشروع السلام فى ١٩٧١/٢/٢ ودراسة الموقف السياسى والعسكرى بعد ٢/٥ موعد انتهاء فترة إطلاق النار. وشارك فى الاجتماع عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا: حسين الشافعى، على صبرى، محمود فوزى، عبد المحسن أبو النور، عزيز صدقى، محمود رياض، الفريق فوزى، شعراوى جمعة، سامى شرف، أحمد كامل رئيس المخابرات، والفريق صادق رئيس الأركان لإبداء الرأى. واستجاب الرئيس لنداء السكرتير العام بمد فترة وقف إطلاق النار ثلاثين يوماً لإعطاء السلام فرصة وللفريق فوزى الوقت الكافى للاستعداد للمعركة. ثم جددت المدة إلى أجل غير مسمى حتى بدأت ضغوط الجيش والشعب لتحرير الأرض المحتلة بالقوة.

د- المؤسسات الدستورية. وأهمها مجلسا الشعب والشورى وهما مجرد مجلسان يُخطران بما استقر عليه الرئيس للعلم والإحاطة دون مناقشات لما اتخذه من قرارات حاسمة فى الحرب والسلام. تسوده أغلبية من الحزب الحاكم، الحزب الواحد فى الجمهورية الأولى أو حزب الأغلبية فى الجمهوريتين الثانية والثالثة. لذلك تضعف المعارضة اليسارية أو الوفدية فى غياب المعارضة الإسلامية الشرعية والمعارضة الماركسية بالرغم من وجودها فى الشارع المصرى. ولما كانت انتخاباته فى كثير من الدوائر مزورة كثيراً ما صدرت أحكام قضائية ببطلان بعض النواب أو ببطلان مجلس الشعب كله لأن القوانين الانتخابية والتى تمت الانتخابات طبقاً لها غير دستورية مثل الانتخابات بالقائمة التى تعارض الدستور الذى يقر بالانتخابات الفردية، "صوت واحد لفرد واحد". الرئيس مركزه وملهمه وقائده وليس له إلا التصفيق والتهليل مثل مشهد رقص أحد النواب بعد تراجع عبد الناصر عن تنحيه يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ بينما فى الكنيست صلاة على أرواح مئات الشهداء الذين سقطن فى الحرب التى كسبتها إسرائيل. وبعد إشراف القضاء على الانتخابات فى الجمهورية الثالثة تحمس الناس قليلاً للإدلاء بأصواتهم بالرغم من تدخل أجهزة الدولة قبل الاقتراع بإرهاب مرشحى المعارضة ورشوة الناخبين لمرشحى الحكومة،

ونجاح المرشحين المستقلين ثم انضمامهم إلى الحزب الحاكم مما يطعن فى دستورية تمثيلهم لخداعهم ناخبيهم. وقد صدرت ضد عديد من نوابه أحكام قضائية بالرغم من الحصانة البرلمانية. وظهرت عبارات "نواب القروض"، "نواب المخدرات"، "جماعات الضغط". أما نسبة ٥٠٪ من العمال والفلاحين فموجودة كماً لا كيفاً، نسبة رياضية وليست واقعاً سياسياً.

وعادة ما يتوجه وزراء الخارجية والدفاع ورؤساء الأحزاب ورؤساء تحرير الصحف مع الرؤساء لإلقاء كلماتهم أمام مجلس الشعب والشورى للأخطار بالعلم. ففى يوم ١٩٧٥/٢/٤ توجه محمود رياض إلى مجلس الشعب لسماع خطاب الرئيس الذى أعلن فيه مبادرة فتح قناة السويس وتطهيرها للملاحة دون إخبار وزير الخارجية مسبقاً. وبعد زيادة التقارب المصرى الأمريكى أعلن الرئيس إلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية فى خطابه أمام مجلس الشعب فى مارس ١٩٧٩ لأن السوفيت لم يلتزموا بمواعيد تسليم السلاح طبقاً للعقود المتفق عليها دون مناقشة وبتصفيق حاد. وكان الرئيس قد ناقش قراره مع وزير الخارجية والسفير السوفيتى قبل أن يخطر مجلس الوزراء ثم مجلس الشعب الذى صادق وهلل. وكان قد أعلن من قبل فى مجلس الشعب فى مايو ١٩٧٢ أنه سوف يتخذ إجراءات حازمة ضد الذين ينتقدون روسيا الحليف الرئيسى لمصر بدلاً من عدوها الولايات المتحدة. وقد ظن إسماعيل فهمى أنها تحذير موجه ضد ندوة الأهرام وهى فى الحقيقة ذراً للرماد فى العيون.

هـ- القضاء. عُرف القضاء على مدى تاريخ مصر منذ "شكاوى الفلاح الفصيح" حتى الإشراف الأخير على انتخابات مجلس الشعب بنزاهته واستقلاله وحكمه لصالح المتهمين من النظام السياسى بالانقلاب وإثارة الشغب فى قضايا أمن الدولة المعروفة. تصدر الأحكام بالإفراج عن صحف المعارضة والطعن فى شرعية المجالس الدستورية وببطلان قرارات مذبحة سبتمبر لكل ألوان المعارضة عام ١٩٨١، الأساتذة والصحفيون والأحزاب ورجال الدين وبابا الأقباط، باستثناء

مذبحة نادى القضاة فى الجمهورية الأولى والعدوان على السنهورى رئيس المحكمة العليا فى أوائل الثورة وهى مازالت تواجه خصومها[1].

تظل وزارة الخارجية هى الحارس والضامن للثوابت الوطنية فى الثقافة السياسية، الاستقلال الوطنى قبل ١٩٥٢ والعروبة بعدها. وتظل الرياسة هى الدائرة الأولى فى صنع القرار السياسى، تتبعها الخارجية إذا كانت تعبيراً عن الثوابت الوطنية وتختلف معها إذا كانت انحرافاً عنها.

إذا كانت لكل جمهورية مأساة فإن مأساة الجمهورية الأولى هزيمة ١٩٦٧، ومأساة الجمهورية الثانية المقامرة السياسية بعد نصر أكتوبر العسكرى فى ١٩٧٣ واتفاقات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ والسلام مع الكيان الصهيونى فى ١٩٧٩ قبل أن ينسحب من باقى الأراضى المحتلة منذ ١٩٦٧، ومأساة الجمهورية الثالثة غياب الخيال السياسى والمبادرة التاريخية والرؤية الواضحة كرد فعل على البطولة فى الجمهورية الأولى و"الخيانة" فى الجمهورية الثانية.

وتمر مصر الآن بفترة مشابهة لما كان عليه الحال قبل ١٩٥٢ فيما يتعلق بالقضية الاجتماعية والتفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وفساد الطبقة الحاكمة وقطاع الأعمال. وتشابه أيضا ما كانت عليه قبل حرب ١٩٧٣، حالة السلم واللاحرب بالنسبة للأراضى المحتلة، وتمزق الشباب بين عار الهزيمة والشوق إلى النصر. قصرت المسافة بين الهزيمة العسكرية والنصر السياسى فى ١٩٦٧والنصر العسكرى والهزيمة السياسية فى ١٩٧٣. ونسى الناس النصر العسكرى، ويشاهدون كل يوم آثار الهزيمة السياسية فى استمرار احتلال الجولان، والضفة الغربية والقطاع، والانتفاضة بمفردها وسط محيطها العربى الواسع وعالمها الإسلامى الفسيح. طالت الفترة الآن من ١٩٧٣ حتى الآن ولم يعد الناس تذكر إلا كامب ديفيد ١٩٧٨ واتفاقيات السلام فى ١٩٧٩ ووادى عربة فى ١٩٩٤. وتكون جيل بأكمله فى حالة مشتبهة بين النصر والهزيمة، القدرة والعجز. يشعر بانسداد تاريخى

---

(١) محمود رياض جـ١/٣٢٧-٣٢٨/٥٢٣، إسماعيل فهمى ص٢٢/٢٦٢.

يكاد يقرب من التوقف، والسير فى المكان، مع غياب رؤية واضحة لطبيعة المرحلة التاريخية التى تمر بها مصر. هناك حنين إلى الماضى عند كل التيارات السياسية الرئيسية التى تعبر عن تعدد الثقافة السياسية: حنين الإسلاميين إلى عصر الخلافة الراشدة، وحنين الليبراليين إلى ثورة ١٩١٩، وحنين القوميين إلى العهد الناصرى، وحنين الماركسيين إلى الأممية الأولى التى ورثتها العولمة. ولا أحد يحنى إلى الحاضر بل يئن منه ويرزخ تحته. ولا أحد يرنو إلى المستقبل فقد غامت الرؤية. ولم يعد أحد يدرى: فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟